بوريبوي أحمدوف
زاهد الله منوروف

العرب والإسلام في أوزبكستان

تاريخ آسيا الوسطى من أيام الأسر الحاكمة حتى اليوم

مراجعة: نعمت الله ابراهيموف
العضو المراسل لاكاديمية العلوم الاوزبكية

تمهيد

أوزبكستان دولة اسلامية ذات تاريخ عريق وثقافة اصيلة، وذلك ما تشير اليه الحفريات الاثرية في خوارزم، سورخانداريا، طشقند وفرغانة، والكتابات القديمة باللغات الاغريقية القديمة، الايرانية القديمة، الصينية، التركية، العربية، الفارسية وغيرها من اللغات. لقد أسهم الشعب الاوزبكي، جنباً الى جنب مع الطاجيك والتركمان والكازاخ والقيرغيز والكاراكالباك، إسهاماً كبيراً في تطور حضارة شعوب آسيا الوسطى.

ولكن لاسباب موضوعية وغير موضوعية، لم يلْقَ تاريخ اوزبكستان دراسة كافية. صحيح انه صدرت حتى الآن عدة إصدارات بعنوان «تاريخ شعوب اوزبكستان»[1]، الا انها كانت بعيدة عن الشمول؛ إذ كانت سياسية أكثر ممّا هي تاريخاً، ومشبعة بالافكار الماركسية اللينينية التي كانت سائدة آنذاك، والتي كانت تقول إنّ المجتمع يتألف من طبقات متعادية متصارعة، في حين كانت تنبذ نشاطات الحكام وأولئك الذين كانوا يتزعمون المجتمع ويشرفون على نشاطه وحياته، وتعتبر الشعب القوة المحركة والدافعة للمجتمع، أما في العهد السوفييتي فقد أنيط هذا الدور

---

١ ـ تاريخ شعوب اوزبكستان، المجلد (١) (من العصور الغابرة وحتى بداية ق ـ ١٧م)، وطشقند، ١٩٥٠؛ تاريخ شعوب اوزبكستان المجلد (٢) (منذ تأسيس دولة الشيبانيين وحتى ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى)، طشقند، ١٩٤٧؛ غلاموف. ي. غ. نبيوف. ر. ن ووهابوف م. غ؛ تاريخ اوزبكستان السوفييتية (في مجلد واحد)، طشقند ١٩٥٨؛ تاريخ اوزبكستان المجلد ١ ـ ٤، طشقند، ١٩٦٧.

إلى زعماء الحزب الشيوعي ومسؤوليه والى الدولة السوفييتية. وكانت الماركسية اللينينية تنكر الدور الانساني الطيب للاسلام وكبار رجال الدين المسلمين. والأدهى من ذلك كله، أنها كانت تربط بصورة تعسُّفية تاريخ الاوزبك والطاجيك والتركمان والكازاخ والكاراكالباك والقيرغيز والشعوب الاخرى بتاريخ الشعب الروسي.

إن هذا البحث الذي يلقي الاضواء على تاريخ شعوب اوزبكستان - تاريخ الشعب الاوزبكي - بعرض موجز، يكمن دوره في عرض أهم الاحداث التي جرت في التاريخ الغني العريق للشعب الاوزبكي، لذا لا يمكن وصفه بأنه بحث كامل شامل لكل ما يتعلق بتاريخ اوزبكستان.

وبصدد هذا، تميز، بصورة خاصة، من الفصول الأخرى الفصل الخامس عشر «أوزبكستان المستقلة»، الذي يحتوي بشكل عام على تدوين لأهم الأحداث التي جرت في اوزبكستان المستقلة (١٩٩١ - ١٩٩٥)، والتي يرى المؤلفان، أنه لمّا يحِن الوقت لتحليل هذه الاحداث تحليلاً شاملاً ووافياً.

في أي حال فقد حاول المؤلفان - بالاستناد الى المراجع والمصادر القديمة المكتوبة والوثائق - تقديم عرض موجز موضوعي لتاريخ الشعب الاوزبكي الذي تمتد جذوره إلى القرون السحيقة.

ويمتاز هذا الكتاب، بحسب اعتقادنا، بان مؤلِّفَيْه أوليا اهتماماً خاصاً دور الاسلام والشخصيات الاسلامية البارزة في الحياة الروحية للشعب الاوزبكي، إذ خصص جزء كبير من هذا الكتاب بموضوع التفاعل الروحي الثقافي لشعوب اوزبكستان مع العرب.

الكتاب مخصص للمطالعة العامة، يفيد منه القراء عموماً ولا سيما المهتمين منهم بالتاريخ المعاصر لأوزبكستان المستقلة وللشعب الاوزبكي.

الفصل الاول

سكان اوزبكستان القدماء

تفيد الاكتشافات الأثرية (في سهل اونغور في وادي فرغانة وغيرها من المناطق)أن أجداد الأوزبك والطاجيك والتركمان الحاليين وشعوب أخرى، قد عاشوا في منطقة ما بين النهرين (نهري أمودارياوسرداريا) في آسيا الوسطى والمناطق المجاورة لما بين النهرين، وأنه مضى نحو خمسة آلاف او ستة آلاف سنة على تعلم سكان آسيا الوسطى فلاحة الارض وزراعتها بمساعدة أساليب الري الاصطناعية. ومنذ ٣٥٠٠ ـ ٤٠٠٠ سنة، ظهرت المدن الكبيرة والصغيرة، وتطورت في هذه المنطقة الزراعة والحرف والتجارة.

وثمة حقائق ومعلومات غزيرة ووافرة عن سكان آسيا الوسطى القدماء، ولا سيما اوزبكستان، تقدمها لنا الحفريات الأثرية التي جرت في مناطق خوارزم القديمة وبقتيريا وسغد وبارفي وفرغانة وتشاتشا(طشقند)، والتي قام بها علماؤنا في الآثار بإشراف رس. ب. تولستوف، م. ا.ماسون، ي. غ. غولاموف، أ. ب. اوكلادنيكوف، أ. أ. عسكروف، أُ. إ. إسلاموف وغيرهم.

وفي هذا الصدد، تجدر الاشارة الى المواد القيمة الفريدة في الأنتربولوجيا (علم الإناسة)، التي جمعها وقدم الاستنتاجات العامة لها كل من ل. ف. اوشانين و ت. ك. خوجانوف في زمانهما. وثمة مواد قيمة ومعلومات مهمة عن حياة سكان آسيا الوسطى واوزبكستان ونشاطاتهم في ميدان الصناعة والإنتاج، تقدمها لنا الكتابات

ثمّة معلومات قيمة جداً عن هؤلاء السقيتيين، ولا سيما تشكيلاتهم القبلية، أوردها العالم والكاتب الروماني القديم الشهير بلينوس الأكبر (٢٣ ـ ٢٤ ـ ٧٩ م)، مؤلف كتاب «التاريخ الطبيعي»، الذي يضم ٣٧ سفراً. وجاء في كتابه: «على الضفة الأخرى (لنهر اوكس) تعيش قبائل الـ «سقيت». ويطلق عليها الفرس اسم «ساكيين» نسبة إلى أقرب قبيلة منهم، أما الكتّاب الاقدمون، فاطلقوا عليها اسم «الاراميين». وأمّا السقيتيون أنفسهم، فيطلقون على الفرس اسم «خورزار»، في حين كانوا يسمون سلسلة جبال القوقاز اسم «كروفكازسكي» أي ـ الثلج الأبيض ـ. إن عدد شعوب السقيتيين لا يمكن احصاؤه ولا يعادلهم عدداً سوى البارثيين. ومن اشهر شعوبهم نذكر: شعوب ساكي، مساغيت، داي، ايسيدون، استاك، رومنيك، بيستيك، بومودوت، غيست، ايدون، كام، كاماكي (كيماكي)، ايفخات، كوتنير، اينتوزيانتس، بساكي، اريماسن، انتراكات، خرو ـ آز و ايغاي.

لقد ترك لنا هيرودوتس وسترابون وايفور وكلافدي ايليان معلومات قيمة عن حياة الساكيين والمساغيت وعن عاداتهم وتقاليدهم، ونقرأ في كتب هؤلاء العلماء ما يلي: «إن المساغيت يشبهون السقيت بملابسهم ونمط حياتهم. فهم يحاربون ممتطين صهوات جيادهم أو مشاة»، ويجيدون كلا أسلوبي القتال، ويحاربون بالسهام والرماح ويستخدمون الأسلحة التقليدية العادية وبلطات الحرب. أما عاداتهم، فهم على الرغم من ان الواحد منهم لا يتزوج اكثر من واحدة، إلا انهم يستخدمون زوجاتهم بصورة جماعية مشتركة....» (هيرودوتس «التاريخ»). أما المساغيت فيقال ان قسماً منهم كان يعيش في الجبال وقسماً في السهول وقسماً في المستنقعات الناجمة عن مياه الانهار، والقسم الآخر في جزر هذه المستنقعات...

ويقتات مساغيت الجزر من جذور النباتات والثمار البرية، لذا لا يهتمون بالزراعة. يكسون اجسامهم بلحاء الخشب، ويشربون العصير المستخرج من ثمار الاشجار. أما مساغيت المستنقعات فيأكلون الاسماك... في حين يقتات مساغيت الجبال من الثمار البرية، كما أن لديهم اعداداً قليلة من الاغنام التي يحتفظون بها فقط للاستفادة من أصوافها ولبنها. يرتدون الثياب المرقشة والمصبوغة بعصائر النباتات، التي لا تفقد بريقها ولمعانها بسرعة. أما سكان السهول فإنهم لا يفلحون

الأثرية القديمة مثل كتاب الزرادشتيين المقدس«اڤيسته»: والآثار الإيرانية القديمة «كفاداي ناماك»، «ماتاقداني خزر واستان»، والملحمة الشعرية الهندية القديمة «مهبراتا»، التي أُلفت في النصف الثاني من القرن العشرين قبل الميلاد، والكتابات المخطوطة بالخط الإسفيني المكتشفة في «الشوس» و«بيرسيكوبل». وغيرها من المناطق الايرانية، ومؤلفات المؤرخين والجغرافيين الرومان واليونان القدماء أمثال: هيرودوتس (٤٩٠ ـ ٤٨٠ ـ ٤٢٥ ق. م)، ايفور (٤٠٥ ـ ٣٣٠ ق. م)، ديودوروس (٩٠ ـ ٢١ ق. م)، بومبي تروغ (ق ا ق. م ـ ق ا م)، سترابون (عام ٦٣ ق.م ـ ٢٨ م)، بطليموس (حوالى العام ٩٠ ـ ١٦٠ ق. م)، كونت كورتس روف (القرن ـ ا ق. م)، ايليان (ق ٢ ـ ٣م) وغيرهم. وحري بنا أن نشير أيضاً إلى المؤرخين الصينيين وأعمالهم، ومؤلفاتهم أمثال: سيم ـ قسيان (١٤٥ ـ ١٣٥ ق. م)، بان غو (٣٢ ـ ٩٢م)، فان ـ خوا (٣٩٨ ـ ٤٤٥ م)، ويّ تشجين (عام ٥٨٠ ـ ٦٤٣ م) وغيرهم.

ووفق هذه المعطيات ومعطيات المصادر الأخرى، التي لم نُشِر إليها هنا، كان يطلق على سكان آسيا الوسطى وكازاخستان والمناطق الجنوبية الشرقية من روسيا اسم مشترك واحد، ويعرفون بالسقيتيين (ساكيّو المصادر الايرانية القديمة). وكانت تطلق على هؤلاء السقيتيين (الساكيين) تسميات مختلفة وفقاً للمناطق التي كانوا يقطنونها، فمثلاً، كانت القبائل، التي تسكن سهوب ما وراء قزوين تعرف بالـ«مساغيت»، والتي تعيش الى الشرق من المساغيت تعرف بالـ«ساكيين».

وتشير الكتابات الإيرانية القديمة الى أن هؤلاء الساكيين كانوا ينقسمون الى مجموعات ثلاث هي: ١) ساكيو ـ هاومافارخا، ٢) ساكيو ـ تيغراخاودا ـ أي الساكيون ذوو القبعات المدببة الرؤوس، ٣) ساكيو تيايتارا ـ دارايًا ـ أي ساكيو زاريتشيا (الساكيون الذين يعيشون في وديان الانهار). وبحسب آراء الباحثين، فقد قطنت المجموعة الاولى منطقة قاراقوم وخوارزم والحوض السفلي لنهر ياكاسارت (سرداريا)، والى الشرق من هذه المجموعة ـ أي المنطقة الوسطى لوادي سرداريا ـ قطنت المجموعة الثانية (ساكيو ـ تيغراخاودا). بينما قطنت المجموعة الثالثة (ساكيو تيايتارا ـ دارايًا) مناطق الضفة اليمنى لنهر اوكس (امودارياً)، الى جوار السغديين.

مصالح الملوك والقادة العسكريين وأرسطقراطيي القبائل والعشائر، وتُصوِّر حدّة ذهن «ابن السماء» وفطنته وطيبته، أي الامبراطور الصيني، وتمجد وتعظم رحابة مركز الكرة الأرضية، أي الصين، وفخامة القصر الصيني ورجال البلاط. أما الشعوب المجاورة للصين كشعوب الـ «اوسوبي»، الأسرغان، والكانغيوي وغيرها، فتصفهم بالوحوش والبرابرة والاعداء، الذين لا بد من معاقبتهم على افراطهم في عنادهم وتمردهم، وعدم اكتراثهم واهتمامهم، كما ينبغي، بموفدي الامبراطورية الصينية وبرسلها وسفرائها. وعلاوة على ذلك، تمتاز اسفار التاريخ الصينية بدقتها في تدوين تواريخ الاحداث والوقائع، وتعرض الاحداث وفق السنين بصورة تسلسلية، وتدعمها بالحقائق والاثباتات، أي انها تشير الى المجموع العام لعدد السكان، القرى، الأمور الرئيسية التي يزاولها سكانها، المسافات بين القرى والبلدان. كما انها تحتوي على مواد غزيرة في الاثنوغرافيا، فمثلاً، تورد حقائق ومعلومات عن حياة وطباع وعادات وتقاليد ومعتقدات شعوب اليوتشجي (الطخاريين)، الاوسوبي، الكانغيوي، الفرغانيين، السغديين، الخوارزميين وغيرهم من الشعوب.

وعلى سبيل المثال، نورد عدداً من الأمثلة:

«يوتشجي الكبرى (للمزيد أنظر أدناه، فصل «مملكة كوتشان») تقع على بعد ٣٠٠٠ لي (لي ـ ٥٧٦ متراً) من دواني (فرغانة) غرباً، ومن نهر غوي ـ شوي (اموداريا) شمالاً. والى الجنوب منها تقع داخيا (بقتيريا)،وتحدها غرباً ـ آنسي (بارفيا)، وتحدها شمالاً كانغيوي. وكذلك مملكة بلاد الرحل، الذين كانوا يتنقلون من مكان الى آخر في اثر ماشيتهم، ويشبهون الهون في عاداتهم، ويبلغ عدد مقاتليهم من ١٠٠٠٠٠ ـ ٢٠٠٠٠٠ مقاتل، وقد استطاعوا، ابان عظمة دولتهم، أن ينتصروا على الهون. ولما اعتلى «مودي» (٢٦٩ ـ ١٧٦) العرش انتصر على اليوتشجي، أما ابنه، زعيم الهون، لا اوشان ـ شانيوي (شانيوي ـ لقب الزعيم)، فقد قام بقتل أمير اليوتشجي وجعل من جمجمته إناء ليشرب الماء به. بادئ ذي بدء، كانت عائلة اليوتشجي تشغل البلاد الواقعة ما بين دونخوان (غانسو) وسلسلة تسيليان ـ شان (جبال في اقليم غانسو).

الأراضي على الرغم من توفرها لديهم، ويعيشون على لحوم الأغنام والاسماك. ويمارسون حياة القبائل الرحّل على طريقة السقيتيين.

إن هذه الشعوب كافة، ذات نمط واحد في الحياة، متشابهة في مراسم دفن موتاها وفي طباعها وعاداتها ونظام حياتها اليومية. وكل شعب من هذه الشعوب، خبيث، وماكر، ومتوحش، وذو روح قتالية، إذا ما أُخذَ على حدة، إلا أنّه بسيط ومخلص في علاقاته بالآخرين.

... لا يعترفون بآلهة أخرى غير الشمس التي يُضحُّون لها بالخيول... (سترابون «الجغرافيا»).

وثمة معلومات طريفة مهمة اوردها ايفور عن حياة السقيتيين وطباعهم وتقاليدهم، جاء فيها: «كان رعاة الاغنام الساكين من قبيلة السقيت، يعيشون في آسيا ذات الاراضي الخصبة، وتحدروا من اصل رعاة امتازوا بالعدل والانصاف. إن السقيتيين قوم لا يطمعون بجمع الثروات ويتعاملون بعدل ومساواة. وكل ما لديهم من النساء والأطفال والأُسر مشاع بينهم ومشترك...، ويتنقلون بواسطة العربات ويعيشون على الألبان. لا يسمحون بالملكية الخاصة، فحياتهم مشاعية تماماً، وتعود الأملاك كافة الى الجميع... كان السقيتيون، في بادئ الأمر، ذوي شأن وقوة عظيمة، وهم الذين اسسوا بارفيا وبقتيريا... وكانوا يُعتبرون، دائماً، أنهم من اقدم القبائل، ويضاهون المصريين بقدمهم». (*ايفور، «فقرة من التاريخ العام»*).

وعن هذه التقاليد الساكية تصادفنا لدى ك. ايليان الحكاية الطريفة التالية: «إذا اراد احد الساكيين ان يتزوج فتاةً، فَعَلَيْه أن يصارعها، فإذا تغلبت عليه اصبح اسيرها وخاضعاً لإرادتها ومشيئتها خضوعاً تاماً، وإذا تغلب عليها استطاع اخضاعها لسيطرته». (ك. ايليان، «حكايات متفرقة»).

كذلك أشارت المصادر الصينية إلى سكان اوزبكستان الاقدمين. ولكن تجدر الاشارة اولاً إلى تحيزها وكونها ذات نزعات معينة، شأنها شأن جميع المؤلفات المصنفة في المجتمعات الطبقية. ولا يخفى على احد أن هذه المؤلفات، كانت تخدم

(والمتوفى حوالي عام ١٠٣ ق. م) أن يوتشجي الكبرى ـ طخارستان (بلاد رحبة ممتدة على ضفتي امودارياء وتضم الأجزاء الجنوبية من اوزبكستان وطاجيكستان. تحدها شمالاً سلسلة حصار. وجنوبا ـ جبال هندوكوش، وتمتد غرباً حتى نهري مركاب وهير يرود، وشرقاً حتى جبال بامير). تتألف من قبائل لها قصرها او مقرها الأميري على الضفة اليمنى لنهر امودارياء وكانت، في بادئ الأمر، قبائل رحل. وتعتبر هي مؤسسة مملكة كوشان (اوالمملكة الكوشانية). وكان تشجان تسيان، الآنف ذكره، قد حاول في عام ١٣٨ ق. م، بناءً على تكليف من الامبراطور او ـ دي (من سلالة الخان الغربي، عام ١٥٦ ـ ١٨٧ ق. م) إقناع حاكم اليوتشجيين بالتحالف ضد الهون، بَيْدَ أن المحاولة باءت بالفشل.

وثمة شعب كبير آخر، ألا وهو شعب الاوسون (اوسوني)، نقرأ عنه في المصادر التاريخية الصينية ما يلي: «يعد اوسون من اعظم الملوك، اخضع لسلطته العديد من المناطق ورفض السفر الى اورطة الهون، وتحد مملكة اوسون بلاد الهون من الجهة الشرقية، وبلاد الكانغيوي من الجهة الشمالية الغربية، ودواني غرباً، وتحدها جنوباً قرى مختلفة سكانها من الحضر. في البداية كانت هذه البلاد تعود الى شعب سي (الساكيين).

تحرك يوتشجي غرباً حيث هزم حاكم سي (الساكيين)، الذي فر الى جنوب ما وراء الممر المغلق (احد الممرات عبر جبال هندوكوش)، ثم توغل يوتشجي الكبير غرباً حيث أخضع داخيا، تاركاً غونمو الأوسون في أراضيه، ما أدى الى وجود قبيلتي الـ «سي» والـ «يوتشجي» كفاصل بين الاوسون يفصلهم الى قسمين. في البداية، ذكر تشجان تسيان (الآنف ذكره) أن حاكميْ اوسون ويوتشجي الكبير كانا يترحلان في آن واحد بالقرب من دون ـ خوان. أما الآن، على الرغم من أن الحاكم ازداد بأساً وعظمة، فإن الهبات والهدايا الثمينة باستطاعتها حمله على العودة ثانية، نحو الشرق، الى الأراضي السابقة، والزواج من الأميرة هناك، ومصاهرة أهلها للجم الهون، (*بيتشورين. جامع المعلومات عن شعوب آسيا الوسطى القدماء، المجلد«٣»*، ص ٦٤).

ولكن حينما انتصر عليه الهون، فر من هناك وانتقل من دواني (فرغانة) الى الغرب وهاجم داخيا (بقتيريا) واخضعها لسلطته، وبالتالي رسخ اقدامه على الضفة الشمالية لنهر غوي ـ تشوي (امودار يا). بقي قسم قليل من شعب اليوتشجي عند السفوح الجنوبية ولم يتمكن من متابعة الآخرين، فأطلق الـ «كيان» (سكان التبت) على هؤلاء يوتشجي الصغيرة...

يقيم حاكم اليوتشجي الكبرى في مدينة لا نتشى (عاصمة بقتيريا) التي تحدها انسي (بارفيا) غرباً وعلى بعد مسيرة ٤٩ يوماً، ويبعد عنها مكان اقامة الأمير مسافة ٦٥٣٧ لي، وتبعد عنها لويان (ينتشجو) القديمة مسافة ١٦٣٧٠ لي. يتألف السكان من ١٠٠٠٠٠ أسرة، ٤٠٠٠٠٠ نسمة، وعدد القوات المحاربة ١٠٠٠٠٠ مقاتل. بعد قضاء الهون على نظام اسرة اليوتشجي الحاكمة، فرت هذه الاسرة الى داخيا حيث تجزأت الى خمس أسر حاكمة: خيومي، شوانمي، غويشوان، هيسي ودومي. وبعد مرور اكثر من مئة عام بقليل، قام أمير غويشوان (كوشان) الأمير كيوتسزوكو (كادريز) باخضاع الأسر الحاكمة الاربع الاخرى، واعلن نفسه ملكاً على غويشوان، ثم بادر الى محاربة انسي (بارفيا)، وانتصر على غاوفا، وقضى على «لودا» و«غيبين» (جنوب افغانستان واعالي نهر الهند)، واستولى على أراضيها. عاش كيوتسزوكو اكثر من ٨٠ سنة، وبعد وفاته اعتلى العرش ابنه يانغوتشجين (ويما «فيما» كادفيز) الذي أخضع الهند وكلف أحد قادته بإدارة شؤونها.

ومذ ذاك، اصبحت اسرة يوتشجي من اقوى الأسر الحاكمة وأكثرها ثراءً، وعُرفت لدى الدول المجاورة بمملكة غويشوان، في حين احتفظ القصر الصيني بالاسم القديم السابق: يوتشجي الكبرى (*بيتشورين ـ مجموعة المعلومات [جامع المعلومات] عن شعوب آسيا الوسطى في الازمان القديمة، المجلد «٢»*، ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨).

لم يحْظَ اصل اليوتشجي وتاريخهم بدراسة عميقة وافية. ويستدل من المعلومات التي اوردها الدبلوماسي والرحالة الصيني المشهور تشجان تسيان

اويستوف أتراكاً.

الأوسونيون شعب متطور وذو باع في ميدان رعاية الماشية (ولا سيما رعاية الخيول)، وكان بعضهم، حيث تتوافر الامكانية، يزاولون الزراعة والصناعات اليدوية.

وتشير المصادر الصينية الى أن عدد الاوسونيين كان في حدود الـ ١٢٠٠٠ عائلة (٦٣٠٠٠ نسمة). وكان بمقدورهم إعداد جيش قوامه ١٨٨٠٠ محارب.

اقيمت العلاقات بين الاوسون والصين منذ عام ١٢٥ق. م، مع قدوم الدبلوماسي الصيني تشجان تسين الى مقر الـ «غونمو»، الحاكم الأعلى للأوسون.

وبعد مرور مدة من الزمن تحالف الاوسون والصين ضد الهون. وفيما بعد، استطاع الصينيون، وبواسطة الهدايا الثمينة، مصاهرة الأوسون (زوجت الاميرات الصينيات للغونمو وورثة عرشه (سينتسزو)، واخضعوا الاوسونيين لنفوذهم وسيطرتهم. وفي عام ٥١ ق. م، وعلى اثر الحروب التناحرية الداخلية، انقسم الاوسونيون الى قسمين. وقع (الاوسونيون الكبار) تحت سيطرة الصين، بينما وقع القسم الآخر (الاوسونيون الصغار) تحت سيطرة الهون. وفي عام ٤٢ ق.م، هزم الاوسونيون الكبار على ايدي الهون، ومن ثم، وتحت ضغط الجوجين (قبائل رحّل قطنت سهوب منشوريا الغربية ومنغوليا) انتقل الاوسونيون من سيميريتشي الى تيان شان، وبعد ذلك، وفي عام ٤٣٦ م، خضعوا لسلطة الصين بصورة نهائية وكلية.

أما سكان اوزبكستان الحضر المزارعون، فكانوا يعرفون بأسماء المناطق التي كانوا يعيشون فيها وينسبون اليها ويطلق عليهم: الخوارزميون، البقتيريون، السغديون، التشاتشيون، الكانغيو(الكانغليون)، الفرغانيون. وذكرت حولهم معلومات مهمة في المصادر الصينية. مثلاً ورد عن فرغانة المزدهرة الغنية ما يلي: «تقع دواني غربي الهون (أي مكان إقامة الخان عند سفح جبال هنغاي، قرب نهر ارخون، حيث كان مقر جنكيزخان في القرن ـ ٨)، وعلى بعد حوالى ١٠٠٠٠ لي عن

إنه لمن المثير للاهتمام ما ذكره المؤرخ: «تقع اوسون شمال شرقي دواني وعلى بعد ٢٠٠٠ لي تقريباً. اهلها عبارة عن قوم رحل يتنقلون في اثر ماشيتهم ويشبهون الهون في عاداتهم وتقاليدهم. لديهم عشرات الآلاف من المحاربين الشجعان. كان الاوسون، في السابق، تابعين للهون، ولكن حينما اشتد بأسهم، جمعوا زعماءهم ورفضوا السفر الى اورطة الهون». (*بيتشورين، جامع المعلومات، المجلد «٢»، ص ١٥٠، المجلد «٣»، ص ٧٣*).

لمحة ايضاحية موجزة عن الأوسون: يلاحظ من المصادر الصينية انهم شعب رُحَّل، عاشوا، في بادئ الأمر، بين سلسلة جبال نان ـ شان ونهر بولونتسير، وفي عام ١٦٠ ق. م، وتحت ضربات الهون وهجماتهم، وفي اثر اليوتشجيين، اضطروا للارتحال الى سيميريتشي وتيان شان، حيث اخضعوا القبائل المحلية المؤلفة من الساكيين وما تبقى من اليوتشجيين، وفي الفترة ما بين القرنين الثاني والاول قبل الميلاد، أقاموا اتحاداً قبلياً، مما جعلهم أقوياء. وبعد ذلك تمردوا على الهون وخرجوا عن طاعاتهم. في تلك الفترة، كانت المساحات التي يشغلونها من الاراضي كبيرة جداً. لقد كانت تحدهم من الجهة الشرقية، قرى (او اراضي) الهون، ومن الجهة الجنوبية الغربية فرغانة، وكانغيوي (كانغلي) غرباً. وكانت عاصمتهم مدينة تشيغو الواقعة على الضفة الجنوبية الشرقية لـ «ايسيك كول».

فيما يتعلق بأصل الاوسون، لا يوجد إجماع في الرأي بين الباحثين. وجاء في أحد المصادر الصينية (في كتاب يان شو ـ غو، ق ٧ ق. م) وصفٌ للمظهر الخارجي للأوسون على النحو التالي: «إن هيئة الأوسوني تختلف كثيراً عن الاجانب الآخرين الذين يعيشون في الناحية الغربية».

وما الأتراك الحاليون ذوو العيون الزرقاء واللحى الشقراء سوى أحفاد الاوسونيين، والدليل على ذلك يكمن في لون العيون واللحى».

إن هذه المعلومات حَرِيَّةٌ بالاهتمام البالغ. وينسب ابيل ـ ريميوز وكلابروت الأوسونيين الى الجنس الآري، في حين يعتبرهم الاكاديمي ف. ف. وادلوف و ن. أ.

بسلطة اليوتشجي على مناطقها الجنوبية، وسلطة الهون على مناطقها الشرقية. لدى حاكم الكانغيوي مقر اقامة في بلاد الـ«لويوين» في مدينة «بيتيان» التي تبعد عن تشان ـ آن مسافة تربو على ١٢٣٠٠ لي. يتألف سكانها من ١٢٠٠٠٠ اسرة (٦٠٠٠٠٠ نسمة)، قواتها ١٢٠٠٠٠ محارب. والى الشرق على بعد ٥٥٥٠ لي، يقع مقر النائب او الوالي». (بيتشورين. *جامع المعلومات، المجلد «٢»*، ص ١٨٤).

كذلك أشارت المصادر التاريخية الصينية الى خوارزم والخوارزميين. وذكرت بالحرف من ضمن ما ذكرت ما يلي: «كان حاكم يوسغيان (جورجان) يملك مقراً في مدينة يوسغيان (جورجان) الواقعة على بعد ٨٣٥٥ لي». (*بيتشورين ـ جامع المعلومات، المجلد «٢»*، ص ١٨٦).

وأخيراً، عن بقتيريا وشعبها: «تقع داخيا جنوب غربي دواني وعلى بعد ٢٠٠٠ لي تقريباً، وعلى الضفة اليمنى لنهر غوي ـ شوي (أي ـ امودايا)، سكانها من الحضر، لديهم المدن والبيوت، وهم (أي ـ البقتيريون) تجار مهرة ويشبهون الدوانيين من حيث عاداتهم وتقاليدهم. ولكن لا رئيس أعلى لهم. ولكل مدينة، تقريباً، حاكم. أما جيشهم فهو ضعيف ويفتقر محاربوه الى الشجاعة والإقدام. ولما هزمتهم يوتشجي الكبرى، إبان اتجاه قواتها غرباً، انصاعوا لاسرة داخيا. يبلغ عدد سكان داخيا قرابة المليون نسمة، عاصمتها ـ لانشي. توجد في هذه المدينة، سوق تتوافر فيها البضائع والسلع المختلفة. وإلى الجهة الجنوبية الشرقية من داخيا، تقع بلاد (مملكة) شندو، او بلاد الهند». (بيتشورين. *جامع المعلومات، المجلد «٢»*، ص ١٥٢).

هنا، واستناداً إلى المصادر الصينية، ينبغي القول ان هذه القرى او البلدان كانت على الرغم من استقلالها، غير متضامنة ولا تربط بينها علاقات قوية، الأمر الذي استغله الجيران الأقوياء: الهون والصين. ونقرأ في التاريخ: «ان كل قرية من القرى الغربية كانت لها دولتها. وكانت قواتها تفتقر الى القوة نتيجة تفرقها وعدم اتحادها. كانت هذه القرى تابعة للهون، الا أنه على الرغم من ذلك لم تكن تربط بين الطرفين

العاصمة غرباً. والدوانيون قوم حضر يزاولون الزراعة: يزرعون الأرز والقمح، يصنعون النبيذ من العنب، وتكثر لديهم خيول «الارغاماك» التي يتفصد عرقها دماً، والتي تعد من سلالة الخيول السماوية. وتضم دواني ما يقارب ٧٠ مدينة بين كبيرة وصغيرة، ويبلغ عدد ورثة العرش زهاء عدة مئات من الآلاف.

والفرغانيون فرسان مهرة يجيدون الرماية، وكانت اسلحتهم تتألف من السهام والرماح. يحد دواني شمالاً كانغيوي، وغرباً يوتشجي الكبيرة، ومن الجهة الجنوبية الغربية داخيا (بقتيريا)، ومن الجهة الشمالية الشرقية اوسون، وشرقاً غان ـ مي (غيومي مدينة صغيرة في ولاية خوتان شرقي تركستان). يقع مقر ادارة حاكم دواني في مدينة غويشان (كاسان) التي تبعد زهاء ١٢٢٥٠ لي عن تشان ـ آن (عاصمة الامبراطورية الصينية في عهد سلالة خان). يتألف سكانها من ٦٠٠٠٠ اسرة (٣٠٠٠٠٠ نسمة)، وقوام الجيش المحارب لديها ٦٠٠٠٠ مقاتل.

لا تختلف التربة والارض والمناخ والصناعات المحلية والعادات عمّا في يوتشجي وانسي. حتى إنّ سفراء ومبعوثي الصين قد اخذوا معهم (من دوان) بذور المحاصيل الزراعية. وامر ابن السماء بزراعة الـ «مو ـ سو» (الفصفصة) والعنب في الارض الخصبة... وقد زرع العنب والـ «مو ـ سو» في مساحات كبيرة. «وعلى الرغم من اختلاف اللغات التي يتحدث بها الناس في المناطق الممتدة من دواني في الجهة الجنوبية الغربية الى آنسي، إلا أن عاداتهم وتقاليدهم متشابهة ويستطيعون التفاهم بلغاتهم بغض النظر عن اختلافها». ويبدو انهم كانوا يتكلمون اللغة التركية ولكن بلهجات مختلفة. (*بيتشورين. جامع المعلومات... ، «المجلد»٢ ، ص١٦١*).

وعن الكانغيوي (كانغلي) الشعب التركي الذي قطن منطقة سرداريا، في أواسط مجرى النهر وأعاليه، جاء ما يلي: «تقع منطقة الكانغيوي شمال شرق دواني وعلى بعد ٢٠٠٠ لي تقريباً، سكانها من الرحّل، ولا يختلفون ابداً عن اليوتشجي من حيث العادات والتقاليد، وعدد جيشها ٩٠٠٠٠ مقاتل. أما حدود الكانغيوي فهي متداخلة مع حدود دواني، ونتيجةً لعدم تمتع الأولى بقوة عسكرية كافية، فإنها تعترف

آسيا الوسطى، الأمر الذي كان قد اكده، ابان حياته، المؤرخ المشهور ب. غ. غفوروف، وكتب قائلاً: «منذ القرون الاخيرة لما قبل الميلاد وبداية قرون ما بعد الميلاد، ومع تدفق الشعوب الناطقة باللغة الايرانية، يبدأ تغلغل المجموعات الناطقة باللغات الأجنبية ومن ضمنها تلك الناطقة بالتركية... ويبدأ الاتراك بالقيام بدور مهمّ وجوهري في تاريخ السلالات البشرية في آسيا الوسطى» *(الطاجيك، ص ٣٧١)*. ودعم هذا الرأي محمود الكاشغاري الذي يعد من علماء القرن العاشر ولغويّيه. فقد ذكر، مثلاً: «إن ما وراء النهر برمتها (أي ـ الأراضي الممتدة من يانكاند «لعلها «يانكينت» المقر الشتوي لملك الغوز الواقع عند مصب سرداريا، وعلى بعد فرسخ جنوب النهر ـ ب. أ» الى الشرق، (أي ـ الى حدود الصين) كانت تعتبر مدناً تركية بناءً على أسمائها. إذ ان سمرقند ـ ساميزقند، شاشا ـ طشقند، اوزقند وتونقند، أسماء تركية. و كلمة «قند» باللغة التركية تعني مدينة. إن الأتراك هم الذين بنوا هذه المدن، وقاموا بتسميتها، ولا تزال تحمل هذه الأسماء حتى اليوم. ولكن بعد ان صارت غالبية سكانها من الفرس غدت تشبه المدن العجمية (الايرانية).

في الوقت الحاضر تمر حدود المناطق التركية ببحر ابيسكون (قزوين) من روم واوزجيند الى تشن. طول هذا (البحر) ٥٠٠٠ فرسخ، وعرضه ٣٠٠٠ فرسخ». *(ديوان لغات الترك، المجلد «٣»، ص ١٦٤)*. هنا، نود لفت الاهتمام الى عبارة «... بعد ان صارت غالبية سكانها من الفرس...» إن هذه العبارة تتفق و تتجاوب مع ما ذكره ب. غ. غفوروف بشأن زمن نزوح الشعوب الناطقة باللغة الفارسية الى منطقة ما بين النهرين في آسيا الوسطى.

يبدو من الاقتباسات والمعلومات المأخوذة من المصادر القديمة، والتي استشهدنا بها أعلاه، ان سكان الجزء الاوروبي من الاتحاد السوفييتي سابقاً وكازاخستان وآسيا الوسطى وحتى التاي، الرّحل منهم والحضر، كانوا يعرفون جميعاً باسم واحد مشترك ـ أي بالسقيتيين (ساكيين، المصادر المكتوبة باللغات الفارسية). وعلى الرغم من ذلك فقد كانت لهم تسميات مختلفة نسبة إلى أماكن عيشهم، وكانوا يتحدثون بلغات مختلفة. فمثلاً، كان المساغيت يقطنون سهب ما

علاقات متينة...» (بيتشورين. *جامع المعلومات، المجلد «٣»*، ص ٩٩ ـ ١٠٠).

ولكن تتوافر معلومات مهمة وقيمة جداً، مثل تلك التي اوردها المؤرخ الصيني، إذ يقول: «على الرغم من الاختلاف الكبير بين اللهجات الدارجة في المناطق الممتدة من دواني الى الجنوب حتى دولة آنسي (دولة بارفيا)، الا ان اللغة واحدة ولا يجد الناس صعوبة في التفاهم فيما بينهم. ويمتاز السكان بأعينهم الغائرة وحواجبهم الكثيفة، وبمهارتهم في التجارة، ويتبارون في الحصول على الفوائد. يحترمون المرأة، ولا يتجرأ الرجل على معارضتها. كما أنهم يستخدمون الحرير والطلاء، ولكن لا يستطيعون استخدام حديد الزهر في صناعاتهم». (بيتشورين. *جامع المعلومات، المجلد «٣»*، ص ٦١).

ان كون الساكيين والمساغيت من قبائل السقيتيين لهو أمر لا جدال فيه. فالساكيون والمساغيت من شعوب آسيا الوسطى الأصليين، الذين سبق ان تحدثنا عن حياتهم وطباعهم وعاداتهم وتقاليدهم والأعمال التي كانوا يزاولونها. إننا لا نستطيع ان نقول شيئاً، بصورة جازمة، فيما يتعلق بلغتهم. أما بالنسبة الى عاداتهم وطباعهم، فيلاحظ شَبَهٌ كبير بينهم وبين عادات وطباع الكازاخيين والأوزبك وغيرهم من الشعوب الناطقة باللغة التركية.

إن تزايد عملية التتريك في آسيا الوسطى في منطقة ما بين النهرين (أي ـ ياكسارت «سرداريا» وأوكس« أمودايا») قد بدأت في حدود مطلع القرن الجاري. كانت هذه المنطقة منذ مطلع القرن الثاني ق. م، قد قدمت اليها من التاي وسيميريتشي الشعوب (القبائل) الناطقة باللغة التركية، والتي كانت لها علاقات اقتصادية وثقافية مع سغد وخوارزم، قبل قدومها بفترة طويلة. وأدى ذلك، طبعاً، الى ازدياد نشاط الشعب التركي هنا. واستمر نزوح القبائل والشعوب من الشمال الى هذه المنطقة في الفترة من ق ٥ ـ ٦ وق ١٠.

والجدير بالذكر هنا، أنه في هذه الفترة بالذات نزحت من الجنوب، أي من جهة ايران الشرقية، شعوب ناطقة باللغة الايرانية وقدمت الى منطقة ما بين النهرين في

فائقة. كذلك حارب الساكيون والسغديون والبقتيريون الى جانب داريا ضد الاسكندر المقدوني في عهد الفاو غاميليين عام ٣٣١ ق.م.

لقد ثارت شعوب آسيا الوسطى على الاخيمينيين غير مرة، لنيل حريتها واستقلالها، وخاضت ضدهم معارك ناجحة، وذلك ما تشير اليه المعلومات التي أوردها الكتّاب والعلماء اليونان القدماء، وجاء فيها من ضمن ما جاء معلومات عن نضال المساغيت وملكتهم توميريس وحربهم ضد الملك الفارسي كير الثاني (٥٥٨ ـ ٥٣٠ق. م). فمثلاً ذكر هيرودوتس: «ما ان علمت تاميريدا بعدم اصغاء كير لنصيحتها حتى جمعت قواتها كلها وزحفت عليه».

ولعل هذه المعركة كانت من أشد المعارك التي جرت بين البرابرة وأكثرها ضراوة. وكما يقال، جرت الأمور في البداية على النحو التالي: وقف الجيشان يتبادلان رماية السهام والنبال، الى أن فرغت جعابهم، ثم التحما مستخدمين الحراب والسيوف، ودارت المعركة طويلاً، وانتهت بانتصار المساغيت، وقد قتل عدد كبير من الجيش الايراني، ومن ضمنهم «كير» نفسه. ولما عثرت تاميريدا عليه، غطّت رأسه بفرو، وراحت تُمثّل بجثته قائلة: «لقد أهلكتني وأنا حيّة منتصرة عليك، اذ سلبتني ابني بمكرك وغدرك. وها انا ذا الآن اشبعك دماً كما أقسمت». لقد جرى هذا الحادث المأساوي في نهاية صيف ٥٣٠ ق.م.

وكان سكان آسيا الوسطى الحضر، ايضاً، يكرهون الأخيمينيين، ويمقتون، بصورة خاصة، الـ «ساتراب» (النواب او الولاة)، الذين اثقلوا كاهل السكان بالضرائب الباهظة وابتزاز الأموال. وكما هو معلوم، كان الجهاز المركزي لحكومة الأخيمينيين قد جزّأ الامبراطورية الى دوائر لجمع الاتاوات، وذلك لتسهيل عملية فرض الضرائب والإتاوات. ونقلاً عن هيرودوتس: «لقد كانت آسيا الوسطى مقسّمة الى ثلاث دوائر لجمع الاتاوات، وكانت الاتاوات من الدائرة الثانية عشرة، والتي كانت تدخل ضمنها الاراضي ابتداء من اراضي البقتيريين وحتى الايغلو (الافغال ـ قبيلة كانت تسكن منطقة سرداريا في ناحية خجند)، تبلغ قيمتها ٣٦٠ تالانت

وراء قزوين، والى الشرق منهم كان يعيش الساكيون، أما السكان الحضر - المزارعون، فكانت تطلق عليهم الأسماء المنسوبة الى مواطنهم: البقتيريون، المرجيلانيون، الباركانيون، السغديون، الخوارزميون، التشاتشيون وهَلُمَّ جراً. وكانوا من المواطنين الاصليين القدماء الذين عاشوا في اوزبكستان، يحيط بهم ومن حولهم، بل يخالطهم ويختلط بهم الاوسون، الكانغيوي، واليوتشجي وهم شعب أصله من التَيبت. وبالتالي نزح هؤلاء اليوتشجي الى المناطق الجنوبية من اوزبكستان وطاجيكستان وشمال افغانستان، وانصهروا في السكان المحليين وأصبحوا منهم.

وبعد ذلك، وفي الفترة ما بين القرنين الرابع والخامس، لعب دوراً فعالاً في تاريخ آسيا الوسطى وايران كل من الهيون والكيدار والهون البيض، أي الافتاليت وهم شعب من أصل تركي.

إن المعلومات المتوافرة لدينا عن الحياة السياسية لشعوب آسيا الوسطى في تلك الحقبة هي قليلة جداً. ونقلاً عمّا ذكره هيرودوتس وايفور، كانت شعوب آسيا الوسطى تربطها صلات بـ «ميديا» (مملكة كانت تقع في المناطق الشمالية الغربية الجبلية في ايران في ق. ق ٩ - ٨ ق. م)، وقد نشبت حرب بينها وبين الساكيين والخوارزميين، وبعد ذلك، وعقب عام ٥٥٠ ق. م (أي في الفترة من عام ٥٥٠ - ٣٣٠ ق. م) حينما قضى الاخيمينيون على ميديا سقطت آسيا الوسطى تحت سَلطتهم (أي سلطة الاخيمينيين)، الذين دام حكمهم لها مدة قرنين. وكما هو معلوم، فقد سقطت تحت سلطتهم اولاً بقتيريا، ثم الساكيون (السقيتيون)، فسغد. اشتهر الاخيمينيون باضطهادهم الشديد لشعوب البلدان التي احتلوها، حتى إنّهم أجبروها على مشاركتهم في حروبهم ضد الاعداء. مثلاً، شاركت شعوب آسيا الوسطى في الحرب الايرانية اليونانية في عام ٤٩٠ ق. م، حينما قاد كسيركس (٤٨٦ - ٤٦٥ ق. م) جيشه قاصداً اليونان (في عام ٤٨٠ ق. م)، وكان الساكيون، الخوارزميون، السغديون والبقتيريون ضمن قوات مشاة الجيش الايراني وخيّالته. وفي معركتي فيرموبيل (٤٨٠ ق. م) وبلاتيل (٤٧٩ ق. م) ابدى الفرسان الساكيون مهارة قتالية

وفي المناطق الحضرية الزراعية كانت البستنة متطورة (يزرعون المشمش، الخوخ والدرّاق...) والكروم، ويمارسون صناعة النبيذ.

ونظراً الى تطور الزراعة وانتشارها بواسطة شبكات الري الاصطناعي، في نهاية القرن ـ ٢٠ق. م، ظهرت مستوطنات كبيرة محصنة (تشوست، والوارزين، دومستان وغيرها).

وفي المدن طرأ مزيد من التطور على صناعة النسيج، والخزف، والحلي، والتعدين والبناء. وتشير الآثار المكتشفة في عمليات التنقيب التي جرت في فرغانة (تشوست، والغارزينتيبا، ويايمالي تاش)، سورخاندايا (ساباليتيبا، وجاركوغان، والغازينتيبا)، خوارزم (تازاباغياب) وغيرها، إلى ان حِرَفِيّي آسيا الوسطى كانوا ينتجون المصنوعات من الذهب والفضة والنحاس، المرصّعة بالأحجار الكريمة، ويصنعون الآلات والادوات والاسلحة، ويبنون القصور الرائعة، والقلاع والحصون والجسور، ويشقون الطرق، ويتاجرون مع بلدان الشرق واتراك التاي.

لقد ساعدت ثروات البلاد الطبيعية على تطور الصناعة والتجارة. وتشير المعلومات المستقاة من المراجع والمصادر الاولية الاصلية الى ان اوزبكستان القديمة كانت غنية بالمعادن كالذهب والفضة والنحاس والحديد والنفط والكبريت، والاحجار الكريمة كالفيروز واللازورد، والقصدير و الرخام والنشادر وغيرها.

وفيما يتعلق بثقافة سكان آسيا الصغرى ومعتقداتهم في تلك الفترة، فبامكاننا أن نقول ما يلي: يبدو أن لغة هذه الشعوب احتفظت بسمة قبلية. فبالإضافة الى اللغات المحلية، كانت اللغة الفارسية القديمة مُتداوَلة كلغة رسمية. هكذا كان الأمر في عهد حكم الاخيمينيين. ولكن بعد ذلك تغلغلت الكتابة الآرامية التي أصبحت أساس اللغتين السغدية والخوارزمية.

لدى شعوب آسيا الوسطى، ولا سيما القبائل التي تهتم بتربية الماشية، ولدى الساكيين مثلاً، كان الأدب الشعبي متطوراً، وذلك ما تثبته حكاياتهم عن الملكة

(وحدة نقدية كانت متداولة على نطاق واسع في اليونان)، ميسوبوتامي، سوريا ومصر، وتعادل قيمتها ٦٠٠٠ درهم ـ ب. أ)... أما الساكيون والكاسبيّون (وهم قبيلة كانت منتشرة آنذاك في الجهة الجنوبية الغربية، أي على الشاطئ القوقازي لبحر قزوين ـ ب. أ)، الذين كانوا يشكلون الدائرة الخامس عشرة، فكانوا يدفعون ٢٥٠ تالانت. أما الدائرة الخامسة عشرة، التي كانت تضم برفيان، خوارزم، وسغد وارين، فكانت تدفع ٣٠٠ تالانت».

طبعاً، لم تكن هذه الضرائب عبئاً ثقيلاً على كاهل الكادحين فحسب، بل على كاهل الوجهاء والأعيان المحليين أيضاً، وذلك لان الـ «ساتراب ـ النواب او الولاة» كثيراً ما كانوا يكلفون هؤلاء الوجهاء والأعيان بجبابة الضرائب. لذا، ونتيجة الاستغلال الوحشي لثروات البلاد، فإنهم كثيراً ما كانوا يعارضون نائب ملوك الاخيمينيين. ولهذا السبب كانوا أحياناً يحرضون الجماهير الكادحة على النضال، وكانت المناطق، الواحدة تلو الأخرى، تتمرد وتثور على الاخيمينيين. مثلاً، في أواسط القرن ٤ ق. م، أعلنت خوارزم استقلالها، ورفض الساكيون الخضوع للأخيمينيين ونالوا سيادتهم أيضاً.

لقد صانت لنا المصادر (آثار الحفريات الاثرية ومؤلفات كتّاب اليونان والرومان القدماء) بعض المعلومات عن الحياة الاقتصادية لسكان تلك الحقبة الزمنية. ويُستدل من هذه المعلومات أن سكان السهوب، كالساكيين مثلاً، زاولوا رعاية الماشية، ما جعلهم يعيشون حياة البدو الرحل، وكانوا يربون الاغنام والماعز والبقر والخيول والجمال التي كانت توفر لهم المأكل والملبس.

أما عن حياة هذا الجزء من السكان وصناعاتهم، فثمة معلومات قيمة باستطاعة المؤرخ الحصول عليها من قبور الساكيين ومدافنهم القديمة في واحة بخارى، فرغانة، باميز، خوارزم وكازاخستان. أما السكان الحضر فكانوا يمارسون الزراعة والصناعات اليدوية والتجارة. لقد كانوا يزرعون الحبوب (القمح، الشعير، والدخن، والأرز..)، والقطن، والسمسم، والقرعيات (البطيخ الاصفر والاحمر واليقطين...).

وُضع «الافسيتة» ـ الكتاب المقدس لدى الزرادشتيين ـ في الفترة ما بين القرنين ٧ ـ ٦ ق. م. ويتألف من أربعة أجزاء: ياسنا، فينديداد، ياشتي، وفيسيزيد. ويضم تعاليم زرادشت المنظومة شعراً، واناشيد واساطير دينية. والفكرة الرئيسة للكتاب تكمن في الصراع بين اهرومزدا واهريمان، وقد جرت صياغته النهائية في ق. ٤ م إبّان حكم شانتور الثاني الساساني (٣١٠ ـ ٣٧٩)، وكان كتاب قانون (او نظام تشريعي ـ المترجم) لدولة الساسانيين.

ولقد أكد المستشرق الفرنسي ج. دارمستيتر والباحث السوفييتي ا. عليّوف أنّ «الافسيتة» أُلّف في «ميديا» أي في ايران الشمالية الغربية وأذربيجان، وبحسب رأي ف.ف. ستروف وس. ب. تولستوف، اللذين اجريا دراسة وبحثاً عميقين حول هذا الاثر، فإن كتاب «افسيتة» قد جرى تأليفه في آسيا الوسطى.

ومن آثار تلك الفترة وصلنا بعض الآثار الفنية: خناجر، وطقوم خيول وغيرها من المواد العائدة للرُحل، أي مواد تصور الحيوانات المختلفة، وهي معروفة في المدارس الفنية بـ«الاسلوب الحيواني»، و صفائح ذهب عليها صور الساكيين، وتماثيل الكهنة المصنوعة من الذهب والفضة، وعربات، وصور العديد من الحيوانات المصنوعة من الذهب ايضاً. لقد عُثر على هذه المواد والآثار في عام ١٨٧٧، أثناء عمليات التنقيب التي جرت في أطلال مدينة تخت ـ كوباد الواقعة عند مصب نهر وخش، وتعود إلى الفترة ما بين القرنين ٦ ـ ٤ ق. م المحاريب ـ المجمرات ذات القوائم الأربع، والقدر البرونزية ذات القوائم الثلاث، وأربعة مواعين فوقها، لها اربعة مقابض، عثر عليها في العام ١٩٣٩ أثناء شق قناة فرغانة الكبيرة؛ وعلى أشياء أخرى غيرها مثل (ختم حجري من افراسياب) والخ...

سباريترا وزوجها المقدام امورغي، والملكة توميريس والراعي شيراك، الذين حاربوا الفرس من أجل حرية بلادهم واستقلال شعبهم. ينبغي ألاّ يغيب عن الذهن أن الملحمة الساكية كان لها أثر كبير آنذاك في تطور الأدب لدى الـ «ميديان» والفرس. ولقد كان ف. ف. بارتولد محقاً في كلامه، حينما قال: «إنه بالتحديد في مناطق إيران الشرقية وفي عهد الأخيمينيين، بدأت تتبلور المواضيع الملحمية، وإنه من المهم جداً ايضاً، انها كانت مكرسة للشخصيات التاريخية». وآنذاك كان ماركفارت قد كتب بهذا الشأن ايضاً، إذ قال على سبيل المثال ما يلي: «كانت المواضيع الملحمية قد جلبها الميديانيون والفرس من الشرق، واستقرت في الغرب. لقد تغلغلت قصة كير ورسخت اقدامها في بلاد فارس لدرجة أنها تصادفنا حتى في عهد الساسانيين».

في الماضي السحيق، كانت شعوب آسيا الوسطى تعبد الشمس، وكان لهم ربان هما الارض والماء، وآلهتان تتجسدان في شخصي ميترا واناخيت، وكان من آلهتهم غافوماردو، نصفه إنسان ونصفه الآخر ثور، وكان يرمز الى القوة الكونية التي اوجدت المخلوقات كافة، عالم الحيوان والنباتات، وعلمت الناس كيفية بناء البيوت والمدن، والتغلب على أنواع الصعاب كافة. «كان المساغيت لا يعبدون من الأرباب والإلهات سوى الشمس، التي كانوا يقدمون لها الخيول ضحايا وقرابين، لاعتقادهم بأن أسرع الأرباب والإلهات جدير به ان يقدم له أسرع الحيوانات».

قال هيرودوتس كما ذكر سترابون: «ان الديربيكي يعبدون الأرض...» ودين الاخيمينيين تحث تعليماته على تقديس الأجداد والأسلاف. إلا أن الديانة الزرادشتية كانت اكثر الديانات انتشاراً في آسيا الوسطى، في الفترة ما بين القرنين ٧و ٦ ق. م، وانتشرت حتى بلغت الهند وبلاد فارس وغيرها من بلدان الشرقين الأوسط والأدنى. والزرادشتية ديانة تجسد الصراع بين الخير (المتمثل باله الخير اهرومزدا) والشر (المتمثل باله الشر اهريمان). وجدير بالذكر أن الزرادشتية تشجب التقشف والزهد، زاعمة ان ذلك يؤدي الى انتصار الشر، وتعترف باليوم الآخر، وتقول إن أنصار الخير مصيرهم الجنة.

الفصل الثاني

الدول القديمة التي كانت قائمة في منطقة اوزبكستان

انتهى حكم دولة الأخيمينيين في آسيا الوسطى (عام ٣٣٠ ق. م)، وحل محلهم المقدونيون. وكانت عواقب هذا الحدث التاريخي عظيمة: لقد تم القضاء على دولة الظلم والاستبداد التي سلبت آسيا الوسطى ثروات طائلة دون أي مقابل. في حين جلب المقدونيون معهم ثقافتهم الرفيعة المعروفة علمياً بالثقافة الهيلانية، وبنوا المدن (الاسكندرية على شاطئ البحر المتوسط (مصر)، وسوزنان (ايران)، في كرماني، واراكوسي (قندهار)، وأرسه (هرات - حالياً) على ياكسورت والخ...)، وشيدوا العمارات الشاهقة، وقاموا بعمليات إعادة إعمار على نطاق كبير. هذا اولاً.

اما ثانياً: فقد ساعدوا على تطوير العلاقات الاقتصادية والسياسية والثقافية بين الشرق والغرب.

وثالثاً: ساعدوا على ظهور عدد من الدول المحلية الجديدة: دولة السلوقيين في ايران (٣١٢ - ١٦٨ ق. م)، دولة البارثيين (٣١٢ - ق. م - ٢٠م) في الشرقين الاوسط والادنى، الدولة الاغريقية البقتيرية (٢٣٩ - حوالى عام ١٣٠ - ق. م) في آسيا الوسطى وشمال افغانستان.

آسيا الوسطى تحت حكم الاسكندر المقدوني وخلفائه

بدأت حملة الاسكندر المقدوني، الذي دام حكمه من ٣٣٦ - ٣٢٣ ق. م، على

دارا الثالث ونوابه (ساتراب): بيس، وبارساينغ، وساتيبرزان، وناباارزان، ومن بقي سالماً، فقد تمكنوا من الفرار باتجاه ايكباتاني (همذان ـ حالياً)، عاصمة ميديا.

وغدت الطريق نحو المركز الحيوي المهم للفرس مفتوحة أمام الاسكندر وجيشه، فتقدمت قواته بجرأة نحو فاميلون (عاصمة دولة العبيد في الجزء الجنوبي من ميسوباتاميا، أي الجزء الجنوبي من العراق). وخرج مازيي، نائب المدينة، واعيانها ووجهاؤها، مستقبلين الاسكندر بالخبز والملح. ومن هناك، وجه الاسكندر قواته الى مدينة السّوس (مدينة قديمة جنوب غربي ديزفول)، ومنها الى بيرسيدو وطن الأخيمينيين. واحتلت قوات الاسكندر آنذاك وبسهولة بالغة، مدينة بيرسيبول، عاصمة الفرس القديمة، حيث استولى المقدونيون على خزينة ملوك الأخيمينيين الغنية جداً والمفعمة بالحلي والأواني المصنوعة من الذهب والفضة، وغيرها من المجوهرات الثمينة التي تزيد قيمتها الاجمالية على ١٨٠٠٠٠ تالانت. وفي عام ٣٣٠ ق. م، تحركت جحافل الاسكندر الى ميديا واحتلت ايكباتان، فهرب دارا الثالث الى عمق إيران، إلا أن الاسكندر لحق به قرب دامغان الحالية. ومع اقتراب قوات الاسكندر قام الـ «ساتراب»، النواب او الولاة، بالقضاء على دارا الثالث والفرار شرقاً.

بعد وفاة دارا الثالث أصبحت أملاك الأخيمينيين وممتلكاتهم كافة بيد الاسكندر المقدوني. أما القوات الأخيمينية المناوئة فقد تجمعت في الجزء الشرقي من ايران وآسيا الوسطى وتمركزت هناك. وكان على الاسكندر احتلال هذه المناطق ايضاً. لكن صعوبات ومشاكل برزت أمامه، كانت تكمن في المؤامرات التي دبّرها اثنان من قادته العسكريين، ألا وهما فارمينون وفيلوت. صحيح، أن المؤامرة اكتشفت فوراً، وقُضي على رؤوسها بنجاح، كما قُضي على مشاعر الاستياء بين صفوف الجيش، وعلى من يعارضون سياسة مواصلة الحرب داخل البلاد؛ إلا أن المشكلة الأهم كانت تكمن في اندلاع الحرب الشعبية الوطنية ضد المحتلين الغزاة. وكانت أخطر الحركات تلك التي تزعمها الوالي الأخيميني السابق لبقتيريا المدعو بيس، الذي أعلن نفسه ملكاً، حتى إنه أطلق على نفسه اسم «آرت كسيركس الرابع». اضطربت الجماهير

الشرق في عام ٣٣٤ ق. م. كان جيشه جيد التسليح والتدريب، يتألف من ٣٠٠٠٠ محارب من المشاة و ٥٠٠٠ من الفرسان. وكان بحوزة هذا الجيش «آليات» حصار مختلفة.

وفي طريقه الى آسيا الوسطى، ألحق الاسكندر عدة هزائم فادحة بالجيش الفارسي، إذ دمر خيرة فرق فرسان الاخيمينيين عند نهر غرانيك، ثمّ استولى على ميليت، وبذلك حرم الاسطول الفارسي من هذا الميناء البحري المهم، ثم احتل غالكارناس درع الاخيمينيين وحصنهم المنيع. وعقب ذلك (عام ٣٣٣ ق. م) ألحقت قوات الاسكندر الهزائم بالفرس على ضفة نهر ايس في كيليكي، وبعد ها سيطر على آسيا الصغرى بكاملها، ثم سقطت بيده أرواد ومارات ودمشق.

وفي مارات أسر الاسكندر زوجات الملك الفارسي «دارا الثالث» وأفراد أسرته(٣٣٦ ـ ٣٣٠ ق. م). كما أسر قافلته في دمشق. واستسلمت له المدن الكبيرة، منها جبيل وصيدا ، من دون مقاومة. وفي العام ٣٣٢ ق. م وبعد حصار دام سبعة أشهر، استولى على المدينة الفينيقية صور .

ومن صور توجه الاسكندر الى مصر، حيث لم يجد مقاومة عنيفة. واستسلم له الـ «ساتراب» النائب «او الوالي الفارسي» بدون مقاومة. وبهذا سقطت المنطقة الأكثر أهمية اجتماعياً واقتصادياً واستراتيجياً بالنسبة إلى الدولة الأخيمينية، وأصبحت بيد المقدونيين. وتجدر الإشارة إلى أن الفضل الكبير في الانتصارات التي حققها الاسكندر المقدوني، يعود الى دعم طبقات السكان كافة له، تلك الطبقات التي كانت تستاء من الأخيمينيين وتكرههم.

وفي صيف عام ٣٣٢ ق. م، احتلت قوات الاسكندر المقدوني مدينة صور واستعبدت سكانها. وبعد ذلك وبدون اي مقاومة، اجتازت نهر دجلة، متجهة نحو غاوغاميل حيث كانت تجمعات القوات الرئيسية لـ «دارا» الثالث، وحيث دارت معركة دموية طاحنة بين المقدونيين والأخيمينيين (١ـ اكتوبر عام ٣٣١ ق. م) مني فيها ملك الأخيمينيين بهزيمة منكرة. لاحق الاسكندر الفرس حتى مدينة أربيل الأشورية. أما

وفي صيف ٣٢٣ ق. م، عاد الى سغد المضطربة، حيث ما زالت الأوضاع متوترة والهيجان مستمراً، ولم تتوقف هجمات سبيتامين الذي تحالف مع المساغيت. عندئذ لجأ الاسكندر الى القوة، واحتل عدداً من القلاع حيث كانت تتحصن - نقلاً عن ادريون - مجموعات كبيرة من المقاتلين السغديين. وتجدر الاشارة هنا، الى أن الاسكندر أقام عدداً من الاستحكامات لخوض معركة ناجحة مع سبيتامين، وأمر احدى فصائله، التي أعدها خصيصاً لذلك، بتمشيط سغد برمّتها. إلا أن سبيتامين واتباعه تفادوا مواجهة قوات الاسكندر، وفرّوا الى ما وراء اوكس (منطقة تركمانستان - حالياً)، حيث أخذوا يشنون الهجمات على مناطق سغد المكشوفة بالتعاون مع حلفائهم المساغيت. إلا أن هذه الهجمات لم تكن ناجحة ولم تُجْدِ شيئاً. إذ إنه إبّان إحدى هذه الهجمات، هُزم سبيتامين على يد «كين» أحد قادة المقدونيين. وهنا ايضاً وللمرة الأخيرة، هرب سبيتامين الى المساغيت، بيد أنّ زعيم المساغيت قام بقتله خشية انتقام الاسكندر منه، وأرسل رأس سبيتامين الى مقر الامبراطور المقدوني. وقد جرى ذلك عام ٣٢٧ ق. م.

وعن الأيام الأخيرة من حياة زعيم السغديين المتمردين، نقرأ لدى المؤرخ اليوناني أرِّيان (ما بين ٩٥ و١٧٥م) والذي أرَّخ لحملات الإسكندر على آسيا ما يلي: «عندما قدم سبيتامين إلى حصن السغديين الواقع على الحدود بين سغد وبلاد المساغيت السقيتيين، استطاع هو (أي - سبيتامين) وانصاره، وبدون أي صعوبة، اقناع زهاء ٣٠٠٠ من فرسان السقيت بشن هجمة مشتركة على سغد... ولما علم «كين» ورفاقه باقتراب سبيتامين مع الفرسان، خرج للقائه مع القوات التي كانت متوافرة لديه. وجرت معركة طاحنة انتصر فيها المقدونيون. أما السغديون، الذين بقوا مع سبيتامين، والعديد من البقتيريين، فقد استسلموا لـ «كين» بعد فرار زعيمهم. بينما قام المساغيت السقيتيون، بعد ان أخفقت العملية، بسلب مؤونة الأطراف المتحاربة، ومن ضمنها مؤونة حلفائهم البقتيريين والسغديين، وهربوا مع سبيتامين الى الصحراء. ولكن ما إن علموا بتحرّك الاسكندر نحوهم باتجاه الصحراء، حتى قاموا بقطع رأس سبيتامين...».

الشعبية في اراخوسيا (منطقة قديمة تقع في حوض انهار ارغانداب، وارغانداك، وارغاستان وغزني، وأهم مدنها قندهار) وأرين (منطقة قديمة تقع على نهر هري رود، ومدينتها الرئيسية ـ هرات). بَيْدَ أنّ الاسكندر تمكن من القضاء على هاتين الثورتين في اراخوسيا وأرين بسرعة وبدون اي صعوبة تذكر.

إلا أن «بيس» سبَّب له الكثير من المتاعب، ما اضطر الاسكندر لمواجهته شخصياً، فاجتاز وادي كابول، وجبال باروباميز (جبال هندوكوش)، واقتحم بقتيريا. لم يستطع بيس الصمود أمام المقدونيين، فهرب الى بلاد سغد الواقعة في ما وراء نهر امودار يا. ولكن سرعان ما ألقى عليه القبض القائد العسكري، بطليموس لاغوس، الذي أصبح ملك مصر، فيما بعد.

وأرسل بيس، فوراً، الى ايكباتان حيث أعدم بصورة شنيعة.

بعد عبور اوكس اصطدم الاسكندر بمقاومة السغديين، الذين كان يترأسهم زعيمهم سبيتامين، الذي اتبع اسلوب الفدائيين في نضاله، الأمر الذي لم يجعل استيلاء الاسكندر على سمرقند يتمّ بسهولة وبدون عناء. ثم اتجه الاسكندر الى فرغانة، وأقام آنذاك على ضفة ياكسارت (نهر سرداريا، في منطقة خجند حالياً) مدينة كبيرة سماها اليكسندري ايسخاتا (الاسكندرية الأخيرة)، وبذلك حاول منع اتحاد سبيتامين مع ساكيي ياكسارت. أما سبيتامين فقد استغل عدم وجود الاسكندر في سغد وقام باحتلال سمرقند. ولما علم الاسكندر بذلك، قفل عائداً بجيشه الى سغد. وفي هذه المرة ايضاً، تجنب سبيتامين الاصطدام بالاسكندر بصورة مكشوفة ومواجهته بشكل مباشر، وفرّ من سمرقند الى السهوب. وهنا سار الاسكندر بجيشه الى وادي بوليتيميت (زرافشان)، بالنار والحديد، حيث قتل ١٢٠٠٠ من السغديين، واستعبد الكثير منهم واقتادهم الى الضفة اليسرى لأوكس.

بعد احتلال سمرقند وإخضاع السغديين، توقف الاسكندر عن محاربة سبيتامين، وعاد الى زارياسب (بقتيريا) لتمضية فترة الشتاء هناك ولتعبئة قواته وتزويد جيشه بالمؤن والعلف للخيول.

والثقافية بين بلدان الشرق ـ من ضمنها دول آسيا الوسطى ـ والبلدان الغربية.

في السنوات الأخيرة اتخذ الاسكندر المقدوني من مدينة بابل عاصمة له، وانهمك في تنظيم شؤون امبراطوريته المترامية الأطراف وترتيبها. فمثلاً قسم المناطق الشرقية من الامبراطورية، ومن ضمنها إيران وجزء من آسيا الوسطى، إلى ١٤ ساترابياً (ولاية): فارس، باريتاكين، كارمانيا، ميدي، تابوريا مع بلاد ماردوف، بارثي مع غيركانيا، بقتيريا، أرين مع دراغيانا، هيدروسيا مع بلاد اريتوف، أراخوسيا، بلاد باروبانيساد، الهند من هذه الجهة من نهر الهند، ومناطق الهند السفلى.

بعد وفاة الاسكندر، جرى في الاجتماع، الذي عقده رفاقه المقربون منه في مدينة بابل، إعادة توزيع الـ «ساترابيات» (الولايات)، إلا أنهم تمكنوا من انتخاب خليفة للاسكندر المقدوني. وتولى الجزء الغربي من الامبراطورية الملك انتي باتر، في حين تولى الجزء الآسيوي من الدولة ـ الذي عاصمته بابل ـ الملك بيرديكا، القائد الاعلى لخيالة الاسكندر. وأدى هذا التصدّع إلى التفتت الشامل للامبراطورية، الذي بدأه الساترابيون (الولاة ـ او النواب) في ميديا ومصر، بيفون وبطليموس لاغوس. ولما باءت جهود بيرديكا ومساعيه، للمحافظة على وحدة الامبراطورية، بالفشل، ولم تؤد إلى أي نتيجة، قتله جنوده في العام ٣٢١ ق.م.

كان «انتي باتر» قد انتخب في الاجتماع الذي عقد في تريبارايديس (سوريا) حاكما أعلى. وعَيَّن أشخاصاً آخرين في مناصب عليا، فمثلاً عين انتيغون ساتراب زيفي، قائداً أعلى في آسيا، وعين بيفون قائداً «للولايات العليا» أي: ايران وقسم من آسيا الوسطى والهند، في حين عهد إلى سلوقوس، احد قادة الاسكندر البارزين، بمنصب القائد الأعلى لبابل. كذلك عينت القيادة العليا لمناطق بارثيا (بارفيا)، أريا، بقتيريا وغيرها من المناطق.

بعد وفاة انتي باتر، (٣١٩ ق.م)، أخذ الساترابيون (الولاة) يتنازعون السلطة على ايران والاجزاء الشرقية من الامبراطورية. وكان اول من ابدى نفسه هو بيفون، ساتراب ميديا، على أن ساترابيي (ولاة) المناطق الشرقية لم يفسحوا له في

وبعد ذلك، لم يَرْمِ السغديون والبقتيريون السلاح وواصلوا النضال. إذ قام عدد من زعمائهم أمثال اوكسيرات وهورين بالاستحكام في حصونهم الجبلية، واستمروا في مقاومة الغزاة ومحاربتهم. وفي العام نفسه (٣٢٧ ق. م) وبعد جهود كبيرة، استطاع الاسكندر التغلب على الجبليين. وكانت هذه الانتفاضة آخر محاولة قام بها السغديون ضد الاسكندر المقدوني.

لقد لعبت سياسة المهادنة، التي اتبعها الاسكندر في تعامله مع مسؤولي البلاد وأعيانها، دوراً معيناً في انجاح عملية مكافحته لشعب سغد المتمرد الثائر، إذ تمكن المقدوني من استمالة هؤلاء المسؤولين والأعيان بقواتهم وفرسانهم الى جانبه، حتى انهم كانوا يشاركون في حملات الاسكندر العسكرية. إذ شاركوا، مثلاً، في الحملة الأخيرة التي شنت على سبيتامين، وكان ضمن قوات الاسكندر فرقة خيالة من السغديين والبقتيريين. قبل ذلك ايضاً، كان جيش الاسكندر يضم تشكيلات عسكرية من الاجانب، وعلاوة على ذلك، صاهر هو وقادته العسكريون الاعيان والوجهاء المحليين. ونقلاً عن أرّيان، فقد أقدم الاسكندر نفسه، بعد احتلاله لحصن اوكسبارات الجبلي، على الزواج من ابنة راهشاناقة (روكسانا)، بغض النظر عن كونها إحدى أسراه، وإبّان محاربته جبليين آخرين في استحكام آخر، قام هذا الاوكسبارات باقناع زعيمهم هوريان بتسليم الاستحكام طواعية. «وعهد الاسكندر - يستطرد أرّيان قائلاً: - إلى هوريان، واعاد اليه ثانية، استحكامه والمحافظة التي كانت تابعة له».

وكانت هذه السياسة سياسة حكيمة بعيدة النظر اتبعت قبل الاسكندر وبعده. إذ إن حكم البلاد المحتلة بواسطة سكانها المحليين مريح، وأكثر سهولة من حكمها مباشرة من الغزاة.

وهكذا أصبحت بقتيريا وبلاد سغد تحت حكم المقدونيين.

لقد ساعد الغزو المقدوني، بصرف النظر عن قوته المدمرة، على زيادة القوى الانتاجية، ومركزة الدولة، وإرساء الثقافة الهيلانية، التي تضافرت فيها العناصر اليونانية والمحلية. كذلك ساعد على تطوير العلاقات الاقتصادية والسياسية

ما عمل سلوقوس على توسيع حدودها، حتى الهند وسرداريا.

وفي عهد سلوقوس (٣١٢ ـ ٢٨١ ق.م) وخليفته انطوخيوس الاول (٢٨١ او ٢٨٠ ـ ٢٦١ ق.م) كانت آسيا الوسطى عبارة عن ساترابيا (ولاية) واحدة، تضم سغد، وبقتيريا ومرغيان. أما خوارزم فيبدو أنها ظلت محتفظة بسيادتها واستقلالها. وحرصاً على سلامة الأمبراطورية وأمنها من الشمال والشمال الشرقي والشرق، قام الملوك السلوقيون بانشاء مستوطنات أو مستعمرات يونانية محصنة. ومن ضمن هذه المدن ـ المستوطنات، أو المستعمرات، ذكر المؤرخون انطيوخيا (انطاكيا) الواقعة ما وراء ياكسارات وانطيوخيا بالقرب من بيرمي علي الحالية. ولحماية واحة مرو الخصيبة أقيم حولها في عهد انطوخيوس الاول سور طوله ١٥٠٠ ستادي (ما يعادل ٢٣٥كلم). وعلاوة على الأهمية الدفاعية لهذه المدن (كانت مبنية في ايران، انطيوخيا في فارْس (خرسان)، اللاذقية في ميديا، سلوقية افلوت، وغيديفون على الخليج الفارسي)، لعبت هذه المدن دوراً آخر تمثَّل في «هيلنة» السكان المحليين (أي جعلهم هيلانيين «أو يونان»).

أما عن الحياة الاقتصادية في آسيا الوسطى، في عهد السلوقيين، فالمعلومات المتوافرة لدينا قليلة جداً. وعلى الرغم من ذلك يمكننا الاستنتاج من اتساع شبكات الري وازدياد عدد المدن والمستوطنات، أنّ الزراعة والصناعة والتجارة قد تطورت إبان ذلك.

وعلى الرغم من ذلك، ونتيجة الحروب الفاشلة في سوريا، والاخفاقات في مكافحة بطليموس «٢» وفيلاديلفوس، واليي مصر في منتصف ق ـ ٣ ق.م، فقد وجدت دولة السلوقيين نفسها في وضع حرج، فاستغلت المناطق الخاضعة لها وراح الساترابيون (الولاة) يعلنون استقلالهم الواحد تلو الآخر. وفي عام ٢٦٣ ق.م استقلت «بيرغام» الواقعة غرب آسيا الصغرى. وابان حكم انطوخيوس «٢» (وعام ٢٦١ ـ ٢٤٧ ق.م)، اندلعت الحرب السورية الثانية (عام ٢٥٨ ـ ٢٥٧ أو ٢٥٤ ق.م). صحيح أنها انتهت بتوقيع اتفاقية سلام، إلاّ أن السلوقيين فقدوا عدداً من مناطق آسيا الصغرى. وفي عام ٢٦٠ ـ ٢٥٠ ق.م، استقلت كابنوديكيا، شمال آسيا الصغرى.

المجال (عام ٣١٨م)، ورفع رأسه «ايفمين»، الذي كان يتصرف باسم انتي باتر الآنف الذكر. وهب ضده سلوقوس وبيفون، اللذان استعانا بـ«انتيغون» إحدى الشخصيات ذات النفوذ المرشحة لحكم آسيا. وقام انتيغون، كونه ألد اعداء ايفمين، باقتحام سوريا، الا انه فشل في محاولته، ما اضطره للتراجع. وفي خريف ٣١٧ ق.م، دارت معركة طاحنة قرب اصفهان بين انتيغون وايفمين، وفي هذه المرة ايضاً، انتهت بانتصار ايفمين. لكن ايفمين هزم في المعركة الثالثة، وأعدم بأمر من انتيغون.

وبعد ذلك، أصبح انتيغون اقوى شخصية في آسيا الصغرى، إلا أن حربه من أجل الاستيلاء على إيران اسفرت عن تحطيمه وهلاكه شخصياً (في العام ٣١٠م، في ايبس). وانتقلت السلطة الحقيقية في إيران عام (٣١٢ ق.م) إلى سلوقوس بعد ان كانت في الماضي في قبضة ساتراب (والي) بابل.

أما فيما يتعلق بآسيا الوسطى، فما كاد الاسكندر يموت، حتّى دبت الفوضى والاضطراب في صفوف قوات المقدوني، وقرر عشرون ألفاً من المشاة و من الفرسان مغادرة البلاد والعودة إلى مقدونيا، بيد أنّ القوات المرسلة ضدهم بقيادة بيرديكا رفيق الاسكندر وأحد أنصاره ، اعترضت سبيلهم وجردتهم من اسلحتهم. وفرّ بعض منهم، إلا أنهم اعدموا فيما بعد. وعقب ذلك عزل ساتراب (والي) سغد، الذي كان من الوجهاء المحليين، وعين مكانه المقدوني المدعو «فيليب»، والذي عهد اليه بحكم سغد وبقتيريا. وفي العام ٣١٥ ق.م، استبدل ساترابيو (ولاة) المناطق الأخرى.

آسيا الوسطى ضمن دولة السلوقيين

دولة هيلانية عظيمة (٣١٢ ـ ٦٤ ق.م) تأسست في حدود منطقتي الشرق الأدنى والأوسط. أسسها سلوقوس الاول ـ ڤيكتور (أي الظافر)، ابن أحد النبلاء المقدونيين وأحد قادة الاسكندر العسكريين. شغل منصب والي بابل اعتباراً من عام ٣١٢ ق.م وقام بتوحيد ميديا وسوزيانا وبيرسيدو، ثم ضم إليها بقتيريا وأعلن نفسه ملكاً. وتعرف دولة السلوقيين ايضاً، بالمملكة السورية. وكانت تُخضع لسيطرتها الأراضي الممتدة من البحر الابيض المتوسط الى ايران الشرقية. وسرعان

مؤامرة أسفرت عن مقتله على يد أحد رفاقه وأنصاره، اليوناني المدعو «افتيديم» (أصله من مدينة ماغنيسيا في آسيا الصغرى)، والذي انتقلت اليه، فيما بعد، السلطةُ في المملكة اليونانية البقتيرية، والذي أسس سلالة الـ « افتيديم» الحاكمة.

ومن الأحداث التي جرت إبان حكم «افتيديم»، الحرب مع السلوقيين، إذ قام انطوخيوس «٣» الكبير بتسيير جيش جرار إلى بقتيريا بهدف استعادة السيطرة على المناطق في آسيا الوسطى، وعند الحوض السفلي لنهر أوك (تيجين)، دارت معركة دموية طاحنة بين «افتيديم» و«انطوخيوس» «٣» أسفرت عن تدمير خيالة افتيديم وهزيمته. ونقلاً عن المؤرخين الاغريق القدماء، جرت هذه المعركة في عام ٢٠٨ق.م، وبعد ذلك حاصر انطوخيوس «٣» عدوه في مدينة زارياسب (بلخ) مدة طويلة. ويبدو أن السلوقي كان مصمماً على الاستمرار في النضال حتى النصر، ولم يكترث لمحاولات الاقناع، ولا للوعود (حاول «افتيديم» إقناعه بأنه ذو ميول سلوقية، وأنه على استعداد لعزل المتمردين كافة، ارضاءً له). عندئذ انتقل افتيديم إلى الوعيد، وهدده بأنه، إذا تطلب الأمر، سيلجأ للاستعانة بالساكيين الرُّحل. وهنا خشي انطوخيوس «٣» هؤلاء الرّحل، ووافق على توقيع اتفاقية سلام.

قفل انطوخيوس «٣» عائداً إلى الغرب، وبقي افتيديم سيداً مطلقاً على بقتيريا. أما عن حكم افتيديم بعد ذلك، فلا توجد لدى المؤرخين أي معلومات هامة تذكر.

استطاع ديمتري، ابن افتيديم وخليفته، توسيع حدود الدولة اليونانية البقتيرية ومساحتها إلى حد اكبر بكثير مما كانت عليه في السابق، إذ ضم اليها مثلاً اريا، واراخوسيا، ودرانغيان. وفي حدود عام ١٧٥ ق.م، استولى على مناطق الهند الشمالية. لم ترد في المصادر اي معلومات او اشارات عن مدة حكم افتيديم أو عن الأحداث التي جرت إبّان حكمه، سوى معلومات عن الاطاحة به واستيلاء شخص يدعى افكراتيد على السلطة، وقد جرى ذلك حوالي العام ١٥٧ ق.م. ومن الاحداث التي وقعت ابان حكم افكراتيد نذكر ما يلي: استيلاءه على باروبا ميساد والبنجاب، وعدم تمكنه من مواصلة تقدمه نحو الهند، إذ حال دون ذلك اعتراض ميناندر له في مكان ما من منطقة نهر الهند. وبعد ذلك بدأت المملكة اليونانية البقتيرية بالانهيار،

وجرى مثل ذلك أيضاً في شرقي الدولة، إذ استغل والي بقتيريا ـ ديودوت انشغال السلوقيين في الحرب غرباً، فانفصل عنهم معلناً استقلاله. وفي الوقت نفسه، تمرّدت قبائل داخيا الرُحل (قبائل بارنوف، التي كانت تتنقل حول بحر قزوين).

باختصار، إن الدولة السلوقية، التي عمتها ثورات الشعوب المستعمرة والنزاعات والحروب التناحرية الداخلية، قد سقطت تحت ضربات الامبراطورية الرومانية.

المملكة اليونانية البقتيرية

كما أشرنا آنفاً، أعلن ديودوت ـ والي السلوقيين سابقاً في حوالي العام ٢٣٩ ق.م ـ انفصاله عن السلوقيين واستقلال بقتيريا. ولكل باحث رأيه الخاص في أسباب انفصال هذه المنطقة الكبيرة ذات الأهمية البالغة في مختلف المجالات، عن الامبراطورية السلوقية. فمثلاً، يرى ف. ف. تارن ـ الاخصائي البارز في تاريخ المملكة اليونانية البقتيرية ـ وأ. غوشتميد، أن ذلك جرى نتيجة ثورة او انتفاضة كبيرة عارمة. في حين يرى المستشرق الروسي م. م. وياكونوف أنّ ذلك كان «نتيجة الفتور التدريجي للعلاقات بين دولة السلوقيين والساترابيا (الولاية) البقتيرية النائية». أما نحن، فنرى أن ما حصل يكمن في العاملين المذكورين: الثورة، وضعف العلاقات الاقتصادية السياسية، بين المركز والولاية.

كانت المملكة اليونانية البقتيرية دولة مترامية الاطراف، تضم بقتيريا، سغد ومارغيان وقسماً من تشاتش. حاول ديودوت ـ مؤسس الدولة ـ الاستيلاء على بارثيا(دولة ظهرت في حوالى العام ٢٥٠ ق.م جنوب وجنوب شرقي بحر قزوين)، ولذا ساعد السلوقيين في نضالهم ضد ارشاك «١» (٢٥٠ ـ ٢٤٧ ق.م) ملك من سلالة الأرشاكيين (أسرة حكمت مملكة بارثيا في العام ٢٣٠ ق.م ٢٢٤م). أما إبنه ديودوت «٢» (المقتول عام ٢٣٠ ق.م) فقد قطع علاقاته بالسلوقيين، وتحالف مع حكام بارثيا (عام ٢٣٨ ق.م تقريباً) ضد السلوقيين. على أن القيادة العليا اليونانية المقدونية لم توافق على تحالف ديودوت «٢» مع البارثيين. ودبرت ضد ديودوت «٢»

وكانت هذه البلدان تستورد البضائع والسلع الهندية: كالتوابل والأفاويه والعطور والأقمشة، وتصدر الحرير والفراء.

وتصف المصادر (الاثرية، المؤلفات والآثار الفنية) المملكة اليونانية البقتيرية كبلاد ذات ثقافة رفيعة، حيث امتزجت فيها ثقافة آسيا الوسطى المحلية بالثقافات الأخرى الهيلانية «اليونانية» والايرانية والهندية، مكونة ثقافة فريدة من نوعها، عرفت بالثقافة اليونانية البقتيرية، وتجلت، بصورة رئيسية، في فن التوقيرتيكا (صك المعادن)، وفي صناعة الميداليات والحلي والتصوير التي وصلتنا على قطع النقود المصكوكة.

وتفيد الحفريات الأثرية التي جرى التنقيب عنها في كل من خوارزم جنوب اوزبكستان (ناحية ترمذ) وطاجيكستان (كيكوباد ـ شاه في كوبيديان) أن سكان المملكة اليونانية البقتيرية كانت لهم كتاباتهم، وقد استخدموا الحروف الآرامية واليونانية.

كانت للموسيقي مكانة هامة في حياة سكان بقتيريا وسغد، ولا سيما في أثناء احتفالات القصر، حيث كانت تستخدم الآلات الموسيقية المختلفة كالمزمار والعود، والطبل والقيثارة والبوق والآلات الموسيقية الوترية.

أما بالنسبة الى المعتقدات السائدة في البلاد بين السكان، فقد كانت مختلفة، إذ عرفوا، اضافة الى الإلهات والأرباب المحليين (اناخيت، ميترا...) إلهات وأرباباً هيلانية (زفس، أثينا، بوسيدون وابولو والخ...)، وإلهات هندية وأرباباً. ذلك ما تشير اليه النصوص وآثار الفنون التطبيقية.

اما المستوى الرفيع للإبداع الفني الثقافي في بقتيريا وسغد، فإنه ينعكس بجلاء في القطع النقدية الذهبية والفضية التي صكت آنذاك، والمواد الأخرى المتعلقة بعباداتهم وحياتهم اليومية، والمصنوعة من الذهب والفضة (كالفناجين، والأواني، والحلي، والتماثيل التي تصور معبوداتهم وأربابهم وحياتهم اليومية).

فانفصلت عنها كل من سغد وخوارزم. وقام الملك البارثيوني ميتيردات الاول (حوالي عام ١٧٠ ـ ١٧٣ ق.م) بسلب مارغيان الغنية منها. وهكذا لم يتبق من هذه المملكة سوى بقتيريا. وفي عام ١٥٥ ق.م تقريباً، قتل افكراتيد على يد ابنه بمساعدة شريكه في الحكم غيليوكل. وزالت الدولة اليونانية البقتيرية في الفترة ما بين العام ١٤٠ ـ ١٣٠ ق.م، وذلك نتيجةً لنمو حركة تحرر شعوب آسيا الوسطى، وقيام اليوتشجي بشن عدوانها على الدولة المذكورة.

وتفيد المصادر الأثرية ومؤلفات الاغريق القدماء، أن الزراعة والصناعة والتجارة كانت متطورة، في المناطق التي كانت تحت سلطة المملكة اليونانية البقتيرية.

لقد كانت الزراعة تعتمد على الري الاصطناعي، وكان السكان يزرعون الحبوب، ولا سيما القمح والأرز والفصفصة، والعنب وفواكه أخرى. كما كانت تربية الماشية متطورة في المناطق الصحراوية، ولا سيما تربية الخيول.

وفي سغد، قزل قوم، وفي الجبال وأعالي وداي امودار يا، كان السكان يزاولون أيضاً مهنة استخراج الثروات الطبيعية.

لقد كانت المملكة اليونانية البقتيرية على مستوى عالٍ من المدنية والتمدن، وليس عبثاً تخليد التاريخ لذكراها ونعتها بـ «بلاد الألف مدينة». لقد وردت هذه العبارة على لسان كل من سترابون ويوسطينوس، وقصدا بها بالتحديد، مدن بقتيريا، شمال الهند، سغد، مارغيان ووادي سرداريا، حيث كانت المدن أمثال: زارياساب (بلخ)، وداربساك (اطلال ايخنوم قرب قوندوز)، وايفكراتيديا (من المتعذر تحديد موقعها)، وماروقند (سمرقند)، واليكسندريا ايسخاتا (في منطقة خجند الحالية)، واليكسندريا على نهر أوكس، وانطيوخيا «انطاكيا» ما وراء ياكسارت وأنطيوخيا (ماري ـ حالياً)، وديميترياس (ترمذ) وكابيسا (باغروم) وغيرها الكثير من المدن، التي كانت متطورة في ميداني الصناعة والتجارة. لقد كانت مدن المملكة اليونانية البقتيرية على علاقات تجارية مع ايران والصين والهند.

عددها حوالي «٧٠»، وتعداد سكانها يقارب عدة مئات من الآلاف، وقوام اسلحتهم السهام والرماح. وهم فرسان ورماةٌ مهرة. والى الشمال من «دوان» تقع كانغيوي، والى الغرب ـ يوتشجي الكبرى، والى الجنوب الغربي ـ داخيا، والى الجهة الشمالية الشرقية ـ اوسون، وغانمي[٢] شرقاً، وبعد ذلك تورد المصادر الآنفة الذكر حقائق طريفة جداً، منها:

«أخذ مبعوثو الصين ورسلُها معهم (من دوان) البذور (بذور الـ «مو ـ سو» والعنب) وأوعز ابن السماء بغرس الـ «مو ـ سو» والعنب في الاراضي الخصبة... وقد جرى غرس العنب والـ «مو ـ سو» في مساحات شاسعة.

ورغم اختلاف اللغات التي يتحدث بها سكان المناطق الممتدة من دوان غرباً حتى آنسي (بارثيا)، إلا أن عاداتهم وتقاليدهم متشابهة جداً وفي تخاطبهم يفهم بعضهم بعضاً ولا يجدون صعوبة في التفاهم».

وإذا ما ترجمنا هذه المعلومات، المستمدة من المصادر التاريخية الصينية، إلى لغة التاريخ، يتضح لنا ان حدود دوان (فرغانة) بالامكان تحديدها على النحو التالي: تحدها غرباً ممتلكات الهون (اتحاد قبلي، كانت غالبيته (في ق ـ ٣ ق. م) تقطن اواسط منغوليا ومنطقة ما وراء البيكال)، وشمالاً بلاد كانغيوي، وفي الجنوب الغربي يوتشجي الكبرى (شعب عاش في الفترة بين ١٤٠ ـ ١٢٩ ق. م على ضفة امودار يا اليسرى في طخارستان)، وفي الجنوب الغربي داخيا (بقتيريا) والشمال الشرقي اوسون.

كان عدد سكان «دوان» آنذاك ٦٠٠٠٠ أسرة (٣٠٠٠٠٠) نسمة.

كانت غالبية السكان من الحضر. ونقلاً عن الدبلوماسي الصيني تشجان تسان في ق ـ ٢ ق. م، كان في دوان ما يقارب الـ ٧٠ مدينة، من أهمها غويشوان (كاسان في فرغانة الشمالية)، يو ـ تشين (اوزغيند ـ شرقي فيرّان) و ايرشي (تقع في منطقة

---

٢ ـ غانمي (او غيويمي) ـ مدينة في ولاية خوتان (تركستان الشرقية)

دولة باركان (فرغانة)

فرغانة ـ بلاد قديمة عريقة، تقع في وادي فرغانة الرحب المترامي الاطراف. وتبلغ مساحتها ٢٢٠٠٠ كلم، طولها زهاء ٣٠٠ كلم وعرضها ١٥٠ ـ ١٧٠ كلم. وتحيط بها من ثلاث جهات السلاسل الجبلية التالية: سلاسل جبال التاي وتركستان (جنوباً)، تشاتكال وكورامين (من الجهة الشمالية الغربية) وفرغانة (من الجهة الشمالية الشرقية)، ومن الجهة الغربية فقط لها ممر ضيق (ممر خجند)، يجري فيه نهر سرداريا، الذي كان يُعدُّ من أعظم أنهار آسيا الوسطى، ويروي السهب «الظمآن». ويحتل وادي فرغانة، بفضل مناخه الجيد وخصوبة أراضيه وموقعه الجغرافي، مكانة مهمة جداً اقتصادياً واستراتيجياً. ففي الماضي، كان يمر بوادي فرغانة أحد فروع طريق الحرير العظيم، الذي كان يربط الصين واليابان ببلدان الشرقين الأوسط والأدنى وروسيا وأوروبا الشرقية. وكان طول هذه الطريق الفرعية زهاء ٧٠٠ كلم، وكانت له فروع: وادي التاي ـ كاراتيغين ـ فرغانة الغربية ـ بقتيريا، المعابر الجبلية ـ وادي كاراداريا ـ فرغانة الغربية ـ بقتيريا. فكانت طريقاً لحركة تجارية نشطة في الماضي القديم والقرون الوسطى. ولذا كان وادي فرغانة ولا يزال يعتبر من أهم مراكز آسيا الوسطى الاقتصادية.

يتألف السواد الأعظم لسكان وادي فرغانة من الاوزبك والطاجيك والقرغيز.

ورد ذكر وادي فرغانة، في المصادر العائدة للقرن ٢ ق.م، كمنطقة كثيفة السكان ذات ثقافة وحضارة، من مناطق آسيا الوسطى ، تعرف باسم «دوان»، فنقرأ مثلاً، في المصادر الصينية،: انها تقع غرب الهون، على بعد ١٠٠٠٠ لي عن العاصمة[١]، إلى الغرب مباشرة. سكانها حضر، مزارعون يزرعون الأرز والقمح، ويصنعون النبيذ من العنب. وتكثر لديهم الخيول الارغاماكية، التي تتفصد عرقاً ممزوجاً بالدم، وهي خيول سماوية الأصل. وفي «دوان» مدن كبيرة وصغيرة يبلغ

---

١ ـ المقصود هنا مقر الخان عند سفوح جبال هانغاي قرب نهر اورخون وحيث كان فيما بعد في النصف الثاني للقرن ـ ١٠ وبداية ق ـ ١٣ مقر قيادة جنكيزخان.

العاصمة الشرقية لفرغانة. على انها لم تبلغ هدفها المنشود، واضطرت للتقهقر والانسحاب بعد ان منيت بخسائر فادحة وفقدت قسماً كبيراً من افرادها ومعداتها وعتادها. وتفيد المصادر الصينية ان ٢ / ١٠ فقط من القوات تمكنت من الوصول إلى «دونوهوان». وبعد سنتين (أي عام ١٠١ ق.م)، أرسل الامبراطور الصيني قواته مرة أخرى، الا انها كانت في هذه المرة تشكل جيشاً جراراً قوامه ١٠٠٠٠ من المقاتلين المزودين بالمؤونة اللازمة وآليات او «مدافع» القلاع (لعلها المنجنيقات). وفي ذاك الوقت، كان الهون يتأهبون لشن عدوان على الصين، وقد حشدوا قواتهم على حدودها الشمالية الشرقية. فإذا ما باشر الهون عدوانهم كان من المحتمل ان تذهب جهود القادة الصينيين والجيش الصيني أدراج الرياح، وتفشل خططهم في وادي فرغانة. لذا قرر الامبراطور الصيني أن يعزل اولاً قوات الهون، فسيَّر اليهم ١٨٠٠٠ مقاتل، لكن خطة الصينيين لم تنجح، إذ ان الهون لم يتجرأوا على خوض معركة ضد الجيش الصيني، واضطروا للانسحاب إلى عمق اراضيهم. بعد ذلك اصبحت الطريق إلى فرغانة مفتوحة أمام الصينيين، وفي هذه المرة أحرز الصينيون بعض النجاحات، فتمكنوا من احتلال يو ـ تشين، وغويشوان، وعدد من المستوطنات الهامة شرقي البلاد. بيد انهم اخفقوا في الاستيلاء على ايرش، عاصمة فرغانة، إذ خرج حماتها من الحصن وحاربوا المحتلين. إلاّ أنهم لم يستطيعوا الصمود، واضطروا للتراجع إلى داخل القلعة. وبعد حصار دام أربعين يوماً، اقتحم الصينيون المدينة الخارجية، واستولوا على منشآتها الدفاعية. وتقهقر حماة المدينة إلى المدينة الداخلية ـ القلعة، وتحصنوا وراء جدرانها واسوارها المنيعة الحصينة. وهنا ينبغي القول إنه في أثناء محاصرة ايرش، حدث شيء ما في يو ـ تشين، حيث أرسل القائد العام الصيني الى هناك فرقة خاصة، قام أهل يو ـ تشين بإبادتها. وجاء في المصادر، انه آنذاك، تمكن الصينيون بقيادة الضابط شان غوان غي من الاستيلاء على يو ـ تشين، التي فر حاكمها الى الكانغيويين. ولكن يبدو أن الصينيين أرسلوا من ايرش الى هناك ـ الى يو ـ تشين ـ فرقة أخرى. أما فيما يتعلق بايرش، فقد تعذّر على الصينيين إخضاعها واحتلالها، وهنا أدرك القائد الصيني أنه لن يستطيع التغلب على

ناحية مرخمات الحالية في محافظة انديجان). زاول الفرغانيون الزراعة: البستنة وزراعة الخضر والكروم، أما في الوديان الجبلية فكانوا يربُّون الماشية، ولا سيما الخيول الاصيلة، التي اشتهرت بلقب «الخيول السماوية». وتجدر الاشارة إلى ان الصينيين أخذوا الكثير عن الفرغانيين في ميدان الزراعة، إذ اخذوا من فرغانة حبوب الفصفصة والعنب التي أمر الامبراطور بغرسها في مساحات شاسعة.

الحقائق الأساسية للتاريخ السياسي

إن المعلومات المتوافرة عن التاريخ السياسي لدوان محدودة جداً، وكل ما بوسعنا قوله بهذا الصدد هو ما يلي:

يستنتج من حضارة المدن المميزة والملحوظة، أن أول دولة في «دوان» ظهرت، على ما يعتقد، في أواسط ق ـ ١٠ ق. م. وعن النظام السياسي الاداري لهذه الدولة لا يمكننا سوى ذكر القليل جداً من المعلومات. فمن الناحية السياسية كانت دولة «دوان» عبارة عن اتحاد مدن ـ دول (غويشوان ـ كاسان، ايرشي ـ مرخمات و يو ـ تشين ـ اوزغيند)، يعرف حاكمها الأعلى بلقب «فان» (أي ـ أمير قيصر). وكان لِـ «فان» مساعدان ينتخبان من أقربائه، وما يدعى بمجلس العُمُد (او الشيوخ) ويبت في القضايا الهامة المتعلقة بالحرب والسلام، اعضاؤه من زعماء وقادة الشعب والقبائل. وهنا تجدر الاشارة الى الدور الكبير، الذي كانت تلعبه قبائل اليوتشجي، الاوسون والساكيُّون وغيرهم من القبائل الرحل في حياة دوان الاجتماعية السياسية.

ومن الأحداث الهامة التي جرت في حياة الشعب الفرغاني، نذكر العدوان الصيني على دوان وشعبها في مطلع ق ـ ٢ ق. م.

في عام ١٠٤ ق. م، قامت قوات صينية، مؤلفة من ٦٠٠٠ فارس و١٠٠٠٠ من المشاة، بقيادة «لي غوان لي» باعتداء على هذه البلاد الغنية الرائعة، ودارت الحرب رحاها مدة سنتين، وصلت خلالها القوات الصينية إلى يو ـ تشين (أوزغيند)،

كانت «صناعة» التعدين، ومهنة تشغيل الخشب، وصناعة الفخار والخزف، وصياغة الحلي والمجوهرات، والنسيج والحياكة، صناعات متطورة ايضاً. وكان الحرفيون الفرغانيون يصنعون المصوغات الرائعة: الحلي (الخرز، والاقراط، والخواتم...) من الذهب والفضة والبرونز، وأدوات الزراعة وآلات الحرب من الحديد (المعاول، والسهام، الخناجر، الدروع والتروس...)

ولقد لعبت دوراً كبيراً في تطور هذه الحرف مناجمُ (الحديد، والذهب، والنحاس، والفضة والخ...) التي كانت غنية بها أراضي الفرغانة.

اشتهرت فرغانة بعلاقاتها التجارية النشطة مع جاراتها: الصين، وبقتيريا، والهند وغيرها من البلدان. وذلك ما تشير اليه الآثار التي جرى التنقيب عنها. فمثلاً، تم العثور في كارابولاك، مونشاك ـ تيبا، ومنطقة زهاد ستروي، على مصنوعات هندية: تماثيل برونزية، موقد صغير عليه صورة الإلهة «باجراباني»، وخرز من العقيق اليماني والخ...

وحري بالذكر أنّ فرغانة شاركت مشاركة فعالة في التجارة الدولية (في الوساطة التجارية).

الثقافة

إنّ أعمال الحفريات الأثرية والتنقيبات، التي أجريت في بعض مناطق هذه البلاد العريقة في الـ ٣٠ سنة الأخيرة، في دالفيرزين، وتشوست، وايلاتان، وشوراباشات، غيرات ـ تيبا، وسوخ، وكوبا (كوڤا) وأماكن أخرى، قدّمت لنا مواد غزيرة عن التراث الثقافي لفرغانة العريقة، وثرائها مادياً وثقافياً وروحياً.

بلغ الفرغانيون مستوىً رفيعاً في فنّ البناء، وذلك ما تشير اليه مدن فرغانة المنظمة والمزودة بوسائل الراحة، والمستوطنات ذات الحصون المنيعة والقلاع، والقصور. كما اشتهر الفرغانيون كحرفيين مهرة بارعين. إن الصناعات الحرفية تقدم مواد قيمة عن حضارة الفرغانيين، إذ كانوا مثلاً ينتجون الاقمشة الجيدة التي

هؤلاء الفرغانيين الجسورين الشُجعان الأباة، فأصدر أمراً بالانسحاب، وفي هذه المرة ايضاً تكبدت قواته خسائر جسيمة، ولم يعد من جيشه المؤلف من ٦٠٠٠٠ مقاتل سوى ١٠٠٠٠. وهكذا باءت الحملة الصينية على فرغانة بالفشل في هذه المرة أيضاً. لقد استطاع الفرغانيون الدفاع عن استقلالهم وسيادتهم، كما فعلوا في السابق، في الفترة ما بين القرنين ٧ ـ٤ ق. م ومطلع العصر الجديد، وتمكنوا من الصمود أمام قوة عظيمة كالامبراطورية الصينية.

لا توجد لدينا أي معلومات عن الأحداث السياسية، التي جرت بعد ق ـ ٣ م، في فرغانة بشكل عام، وفي الجزء الشمالي الشرقي من آسيا الوسطى، سوى تلك المعلومات المتعلقة بالسفارة في الصين وما حدث فيها في ق ـ ٥ م.

ولكن الجدير ذكره، أنه عند مفترق القرنين ٥ ـ ٦ م، بدأت في فرغانة ايضاً مرحلة تكون المجتمع الاقطاعي.

العلاقات الاجتماعية الاقتصادية

في نهاية ق ـ ٢ ق. م ـ وبداية ق ـ ١ ق. م، يلاحظ في فرغانة حدوث تطور في الزراعة، وتربية الماشية، والصناعة والتجارة.

ففيما يخص الزراعة، تفيد الحفريات الأثرية التي تمت شرق فرغانة (ايلاتان)، بانها كانت تعتمد على الري الاصطناعي. وزُرعت الأراضي بالحبوب كالقمح، والأرز، والدخن، والعدس، والحمص، والصنوبر، والبرسيم (مو ـ سو ـ المصادر الصينية)، القطن والقرعيات (البطيخ الأحمر والأصفر والخ...)، والفواكه (المشمش، الدراق، الجوز، الكرز والعنب). كذلك كانت تربية دودة القز متطورة أيضاً. وفي المراعي الخصبة كانت الأبقار والخيول، والحمير والجمال. وكما اشرنا آنفاً، لقد كانت فرغانة مشهورة جداً بخيولها «الآرغاماك».

كذلك كانت الصناعات اليدوية متطورة. وبناءً على دراسات علماء الآثار (ي. أ. زادينبروفسكي، ت. غ. اوبولدويفا، ن. غ. غور بونوفا، أ. إ. اسلاموفا وغيرهم)

العموم، في المصادر التاريخية الصينية («هو ـ هان شو»، «بي ـ شو»، «سوي ـ شو»، «سين تان شو» والخ)، وكتاب «افسيته» المقدس لدى الزرادشتيين الآنف ذكره، والملحمة الشعرية الهندية «مهابراتا»، وفي الدراسات والابحاث التي اجراها كل من: ف. ف بارتولد ، م. ي. ماسون، س. ي. مالوف، س. ب. تولستوف، س. غ. كلاشتورني، ف. توماشيك، ف. خيتر، إ. ماركفارت، وا. شافان وغيرهم. ان أهم خطوة في دراسة تاريخ دولة كانغلي (كانغيوي ـ المصادر الصينية)، تكمن في الرسالة العلمية«دولة الكانغلي والكانغيوي» (باللغة الاوزبكية) التي كتبها المؤرخ الاوزبكي ك. ش. شانيازوف، ونشرها في عام ١٩٩٠. وبفضل هذه الرسالة أصبح باستطاعة المؤرخين أخذ صورة عن الشعب الكانغلي التركي العريق وعن دولته.

الكانغلي (كانغار، كانغ، كانخا، كانغو، كانغوي) شعب تركي، وهذا مما لا شك فيه. يؤكد ذلك كتاب «أفسيته» والكتابات التركية القديمة وابن خورزادبيخ (حوالى ٨٢٠ ـ ٩١٣)، الادريسي (١١٠٠ ـ ١١٦٥)، رشيد الدين (١٢٤٧ ـ ١٣٢٨)، وابو الغازي (١٦٠٣ ـ ١٦٦٤). ومثلاً، ذكر رشيد الدين، الذي كرس فصلاً خاصاً من كتابه «جامع التواريخ» لتاريخ الشعوب التركية والتركية المغولية، عن الشعب الكانغلي ما يلي:

«في الوقت، الذي كان فيه أوغوز ـ خان (سلف الشعوب التركية ـ ب. أ) يحارب أباه وأعمامه وإخوانه وأقرباءه، ويشن الهجمات على البلاد ويقوم بسلبها ونهبها، كان المنضمون اليه من سواد الشعب ومن أقربائه، يصنعون، بحسب استطاعتهم، العربات ويحمّلونها الأشياء المنهوبة كافة، في حين ينقلون الغنائم الأخرى على الدواب. كانت هذه العربات تعرف باللغة التركية باسم «كانكا»، ولذا اطلق عليهم إسم هذه العربات. نشأت فروع الكانغلي كافة عن خلفهم». وتقريباً، يمكن قول الكلام نفسه عن «شادجارا ـ يي تورك» ابي الغازي خان، بَيْدَ أننا هنا إزاء نقطة هامة: أشار إليها المؤرخ، وهي أنّ هذا الحادث قد جرى إبّان حرب أوغوزخان مع التتر .

إنه كان من المستحيل تقريباً تحديد مساحة الدولة الكانغلية وحدودها، وذلك لتضارب المعلومات التي أوردها العلماء المختصون بتاريخ الاتراك واختلافها، كما

تحمل صوراً آدمية، والمناديل التي عليها الإلهات، وحلي النساء (كالاقراط من الفضة والبرونز، والخرز من الزجاج والحجارة والمرجان، والأساور المعدنية، والخواتم من البرونز والحديد، والاطواق والعقود ...). ذلك ما تدل عليه الأواني المزخرفة بالرسوم والنقوش، والحلي المصنوعة من الذهب على هيئة طيور، والمقابض البرونزية على هيئة جسم مرأة للمرايا، والصفائح البرونزية وعليها صور إلهتي الشمس والقمر، والتماثيل البرونزية المصنوعة على هيئة أغنام وتيوس جبلية وخيول. وثمة مواد غزيرة عن ثقافة فرغانة العريقة وحضارتها تقدمها لنا الصور المنحوتة على الصخور (طقوم وعدة قرن الثيران والعربات الصغيرة وتلك التي تجرها الخيول والخ...)، التي تم العثور عليها أثناء الدراسات الاثرية للجزء الاوسط من سلسلة جبال (سايمولي ـ توش) الفرغانية.

أمّا عن الأديان والطقوس الدينية لدى الفرغانيين، فاننا نعرف ما يلي:

كانوا يعبدون الكواكب السماوية (الشمس، والقمر) والقوى السحرية. وكانت سائدة لديهم عبادة الأجداد والأسلاف وتقديسهم، وكذلك الخيول المصورة على الصخور والطيور الداجنة (الدرّاج، والديك، والطاووس) المنقوشة على الخزف.

وإذا ما تطرقنا الى العلاقات الاثنو ـ ثقافية، فإنّ القبائل العريقة القديمة لهذه المنطقة ـ المزارعين ورعاة الماشية ـ كانت على علاقات وثيقة بعضها ببعض، وأدت الى تكوين الشعب الفرغاني العريق ذي القاعدة الاقتصادية المميزة والثقافة الاصيلة الغنية واللغة الخاصة به (يعود تاريخ أقدم كتابة إلى ق ـ ٢ ق. م).

ودخل ضمن سكان فرغانة العريقة شعوب اليوتشجي، الساكيُّون والاوسون الرحل.

دولة كانغلي

إن المعلومات المتوافرة لدينا عن هذه الدولة العريقة في آسيا الوسطى، التي كانت قائمة في الفترة ما بين ق ٣ ـ ٢ ق. م، معلومات شحيحة جداً،وردت، على

تشارجو الحالية ويويغان - خوارزم.

وعن التاريخ السياسي إبّان فترة وجود دولة كانكا، يمكننا أن نقول إنه في أوج مرحلة ازدهارها (ق - ٢ ق. م - ق - ١ ق. م)، كما يلاحظ من خلال تقارير الدبلوماسي الآنف ذكره، تشجان تسيان، الذي زار تركستان الشرقية ودوان وكانغيوي في عام ١٣٨ - ١٢٦ و١١٥ ق. م، حاولت الصين استمالة كانغيوي إلى طرفها في نضالها ضد الهون، وأرسلت تشجان تسيان لهذا الغرض. إلاّ أنّ المحاولة الاولى باءت بالفشل، إذ رفض ملك كانغيوي اقتراح الامبراطور الصيني، ڤو - دي «فقد كان كانغيوي أنوفاً ذا كبرياء وتحدٍّ ويرفض رفضاً قاطعاً أن يحني هامته أمام مبعوثينا، إنه يُجلس المسؤولين الذين يرسلهم الوالي في أماكن دون تلك التي يجلس فيها سفراء «الاوسون»، هذا ما ذكره تشجان تسيان متذمراً في تقريره الذي رفعه الى الامبراطور. ورغم ذلك فإنه، في أثناء زيارته الثانية (في عام ١١٥ ق. م)، استطاع تشجان تسان إقناع ملك كانغيوي بالتحالف مع الصين ضد الهون. صحيح أنه آنذاك زار مقر ملك الاوسون، بيد أن المصادر لا تذكر ما إذا كان قد زار الكانغيويين أم لا. لذا لا أحد يدري بما انتهت إليه مهمة الدبلوماسي الصيني في هذه المرة.

أما عن تاريخ البلاد والتطورات اللاحقة التي جرت في الفترة ما بين ق - ٢ ق. م والنصف الاول من ق - ١ ق. م، فلا توجد لدينا اي معلومات عن ذلك أيضاً. ولكن في نهاية ق - ١ ق. م، ازدهرت كانغيوي مجدداً وتطورت، وذلك بفضل الأزمة التي بدأت في بقتيريا والتي أدت إلى انقسام يوتشجي الى خمس امارات، وضعف الهون في حربهم مع الصين.

كذلك لا نعرف الكثير عن العلاقات الدولية لدولة الكانغيوي. ونعرف مثلاً، أنه في عام ٣٦ ق. م حينما اجتاحت الصين وادي تالاس وألحقت الهزيمة بالهون هناك، كان الكانغيويون الى جانب الهون. ويستدل من المعلومات القليلة المتفرقة الواردة في المصادر الصينية أن دولة الكانغيوي قد توصلت الى عقد اتفاقية سلام مع الحكومة الصينية، واستطاعت بذلك صيانة استقلالها. وفي بداية ما بعد الميلاد تمكنت من بسط نفوذها على قرى قبائل اليانتساي (الـ «آلآن») الرحّل الذين عاشوا

اختلف المؤرخون المختصون بتاريخ القرون الوسطى أحياناً بشأنها. وكونها معلومات متناثرة ومتفرقة، وبناءً عليها، بامكاننا تحديدها على نحو تقريبي. فمثلاً - نقلاً عن المصادر الصينية - بامكاننا ان نقول عن حدود كانغيوي إنه كانت تحدها شرقاً دوان (فرغانة)، وفي الجهة الشمالية الشرقية كانت حدودها تلامس بلاد الاوسون الممتدة آنذاك على سفوح تيان - شان ومنطقة ايسيك كول، وغرباً كانت حدود كانغيوي تمر من منتصف مجرى ياكسارت (سرداريا).

كانت عاصمة البلاد تحمل اسم البلاد نفسه - كانكا (كانخا، كانغيوي). ويحدد موقعها أيضاً بفضل المعلومات الواردة في المصادر. فمثلاً، جاء في المصادر التاريخية الصينية، مايلي:

«لدى حاكم كانغيوي مقر في بلاد لويوين في مدينة بيتيان، وعلى بعد ١٢٣٠٠ لي عن تشان - آن». إن تعيين حدود «بلاد لويوين» يكاد يكون مستحيلاً، ولكن ليس من الصعب تحديد موقع بيتيان، التي بنيت في مطلع ق - ٣ ق. م. وكما هو معروف، جاء ذكر كانكا القديمة كعاصمة دولة عظيمة، في المصادر الشرقية، أما الدراسات المتمعنة للآثار المتبقية، التي قام بها في سبعينات ق - ٢٠، عالم الآثار الاوزبكي المشهور ي. ف. بورياكوف. فإن كانكا، بناءً على ما قدّمه، كانت تقع على المجرى السفلي لنهر آخانغاران، احد روافد سرداريا. ومن هنا بالامكان أن نحدد، على نحو تقريبي، موقع«بلاد لويوين»، موطن القبائل الساكية، وتحديد مقر افراسياب، الملك التركي الاسطوري، وقلب بلاد توران. وبحسب رأي الباحث، فان «بلاد لويوين» هي منطقة واحة طشقند الحالية.

وكانت من ضمن الاراضي والمناطق الخاضعة لمملكة كانكا (كانخا، كانغيوي)، - علاوة على لويوين - أي واحة طشقند، الاراضي الممتدة في وادي زرافشان وهي:

مناطق «كان» - سمرقند، ميمومايمورغ - أي الأراضي الواقعة جنوب «كان»، سوسي - الأراضي الواقعة في وادي كاشكاداريا، فومو - منطقة كاثاكورغان - حالياً، انسي - منطقة الحوض السفلي لزرافشان، أي محافظة بخارى، أوناغا -

وفي ق ٢ ـ ١ ق. م حاولت دولة كانكا صكّ عملة خاصة بها، إذ لم تكن لديها عملتها الخاصة قبل ذلك، فاتخذت العملة اليونانية البقتيرية نموذجاً. وساعد اصدار الوحدة النقدية على تحقيق مزيد من التطور، وعلى تنشيط تداول السلع والنقود.

أما المعلومات المتوافرة لدينا عن معتقدات الكانغيويين وثقافتهم، فهي معلومات عامة ومستقاة من المصادر الصينية ومواد الحفريات الاثرية. وبناءً على هذه المعطيات، كان قسم من السكان يعتنق الزرادشتية، وذلك ما تؤكده بقايا معابد النار، وتماثيل الإلهتين ميترا وأناخيتا، التي عثر عليها . س. ب. تولستوف في جانباس ـ قلعة، ولكن كان هناك من يعبدون الشمس (مثلاً: المساغيت والكاوسي وسكان سرداريا السفلى). والحيوانات كالخروف (سكان كاونتشي وطشقند القديمة). ان المواد التي جمعت في أثناء التنقيب، في كاونتشي تيبا (غ. ف. غريغوريف)، وفي انغرين (ت.ر. اعظمخو جايف) وفي واحة طشقند (ي. ف. بورياكوف)، تقدم بعض الاحكام والافكار عن مراسم الدفن لدى قسم من سكان الكانغيوي الذين كانوا يدفنون الميت في الارض.

كانت لدى الكانغيوي ثقافة رفيعة: كان مستوى بناء المدن يجري على النحو المطلوب، وذلك ما تثبته عمليات التنقيب في موقع كانكا القديمة، تشاشتيبا، كوي كيريلغان ـ قلعة، جانباس ـ قلعة وغيرها. ويستدل من مواد هذه الحفريات أن المدن كانت محاطة بأسوار عالية منيعة، خلفها خنادق عميقة عريضة، مملوءة بالماء كمواقع دفاعية. وداخل المدينة اقيمت قلعة داخلية ـ آرك. وكانت شهريستان ـ ضاحية للحرفيين. وعلاوة على ذلك، كان عدد مثل هذه الضواحي في كانكا ثلاثاً وكلها محاطة بأسوار متينة حصينة. وكانت للمدينة الداخلية والخارجية ابواب.

وكان المسرح والموسيقى فنّين متطورين. وجاءت في المصادر الصينية، وخصوصاً المباحث الموسيقية التي كتبت في القرنين ٢ ـ ٣م، معلومات طريفة عن الرقصات والراقصات في آسيا الوسطى، والآلات الموسيقية: الناي، السورناي (زونا)، تشيليدرما (الدّف)، الدوتار (آلة موسيقية ذات وترين)، غوسلا (آلة ذات

الى الغرب من دولة الكانغيوي.

أما عن الحياة الاقتصادية والثقافية لدولة الكانغيوي في الفترة ما بين ق ـ ٣ ق. م ـ ق ـ ٥ م، فباستطاعتنا ان نقول حرفياً ما يلي: نقلاً عن معلومات المصادر الصينية («شي تسزي»، «تسيان خان شو»، «سوي شو»، «سين تان شو» والخ...) ومعطيات الحفريات الاثرية (ب. أ. ليتفينسكي، ي. ف. بورياكوف، م. إ. فيلانوفيتش وغيرهم) إن الجزء الأكبر من سكان كانكا كانوا يزاولون تربية الماشية، ولا سيما الأبقار والخيول والماعز. وفي وديان الانهار وحول البحيرات كانت الزراعة متطورة وتعتمد على الري الاصطناعي. وكان السكان الحضر يزاولون، بصورة رئيسة، زراعة الحبوب (القمح، الشعير والدخن) والعنب والبستنة. أما في المدن (وكانت كثيرة، ففي واحة طشقند وحدها بلغ عددها أكثر من عشر مدن) فقد اشتهرت الحرف الصناعية: الحدادة والنسج والحياكة والخزافة وغيرها. ويتجلى المستوى الرفيع من التطور الذي بلغته مهنة الحدادة في نماذج المصنوعات المنجزة من الحديد والنحاس والفضة، وأدوات العمل والأسلحة، والادوات المنزلية، التي تم العثور عليها في عمليات التنقيب الأثرية في آخانغاران، وكاونتشي، وسيمير يتشي وغيرها من الأماكن. كما بلغت مهنة الحياكة والنسج مستوىً عالياً من التطور قياساً إلى تلك الفترة، فمثلاً كانت تنتج الأقمشة القطنية الجميلة الرقيقة وتصنع منها الثياب، والمصنوعات الجلدية والصوفية والقبعات الخ... كما تطورت مهنة الخزافة، وصناعة الجرار بمختلف الأحجام، والفناجين، والقدور، وأواني الزهور، التي اكتشفت في كاونتشي ـ تيبا، واشتهرت المنتجات المصنوعة من العظام والحديد (المناجل والسكاكين والمعاول... الخ).

ومن البديهي أيضاً، ان التجارة بدورها كانت متطورة على الصعيدين الداخلي والخارجي، إضافة الى تطور انتاج الصناعات اليدوية ، لكن طريق الحرير العظيم، الذي كان يمر من خلال اراضي الكانكيين لعب دوراً هاماً، فبفضله استطاع سكان آسيا الوسطى اقامة علاقات تجارية وثقافية نشطة مع الهند والصين وايران وآسيا الصغرى، ومن خلالها مع اليونان وروما واوروبا.

أهم الاحداث السياسية

بلغت الأمبراطورية الكوشانية ذروة تطورها وازدهارها في عهد كودجولا كادفيزا والذين خلفوه مباشرة: كادفيزا «٢» «ڤيما» وكانيشكي.

إبان حكم كودجولا «٢» وكادفيزا (عام١٥ ـ ٥١م)، تأسست نواة المملكة الكوشانية، إذ تمّ إخضاع أفغانستان المركزية وكشمير. واصل كادفيزا «٢» ڤيما (بيويانغا يوتشجين ـ المصادر الصينية عام ٥١ ـ٧٣ م) سياسة الغزو التي اتبعها والده، وفي عهده تم غزو الهند وصولاً إلى مدينة بيناريس. «ومنذ ذلك الوقت، نقرأ في المصادر التاريخية الصينية «ديان خان ـ شو»: أصبحت أسرة يوتشجين من اقوى الأسر الحاكمة واكثرها ثراء. واخذت الدول المجاورة تطلق عليه لقب «ملك غويشوان»، إلاّ أنّ القصر الصيني استمر في اطلاق اللقب القديم (يوتشجين الكبرى) على هذه البلاد». وباسم كادفيزا «٢» ڤيما ارتبط اصلاح نظام العملة (إذ في عهده بالذات بوشر بصكّ النقود الذهبية والنحاسية من فئات الدينار، والدينارين، وربع الدينار ونصفه). كانت عاصمة الامبراطورية الكوشانية في عهد كادفيزا «٢» ڤيما، تقع في بوروشانتسور، بضواحي بيشاوار حالياً. ولوحظت نهضة سياسية كبيرة في حياة الامبراطورية الكوشانية إبان حكم كانيشكا (عام ٧٣ ـ ١٢٣ م)، ڤاسيشكا (دام حكمه ٤ سنوات) وخوڤيشكا (حكم اكثر من ٣٢ سنة). واصل كانيشكا سياسة اسلافه التوسعية، فضمّ ما تبقى من شمال الهند حتّى مجادخي وشرق تركستان. وفي عهده اصبحت كوشان دولة عظيمة، في مصاف روما وبارثيا (خرسان حالياً) والصين. وجدير بالذكر، أنه إبان عهد هذا الامبراطور، أصبحت البوذية الديانة الرسمية للامبراطورية الكوشانية، واللغة اليونانية البقتيرية اللغة الرسمية.

وفي عهد ڤاسوديف (دام حكمه ٣٤ عاماً) بدأت الامبراطورية الكوشانية بالانهيار. وكانت قد انقسمت آنذاك الى قسمين. وفي ق ـ ٤ م، تفتتت على اثر ادخال نظام اللامركزية وانعدام العلاقات الاقتصادية القوية بين الاقاليم، ولا سيما مع آسيا الوسطى، داخلياً، ولأسباب خارجية (اجتياح الكيداريين وخيونيين والهون

خمسة اوتار)، وعن الحان (مقامات) البخاريين، السمرقنديين والكانغيوي.

مملكة كوشان

دولة كبيرة، ضمت في مرحلة ازدهارها (ق ـ ١ وبداية ـ ٣ م) معظم اراضي آسيا الوسطى، افغانستان، وشمال الهند والجزء الغربي من باكستان الحالية. وقد ظهرت في حدود القرن الميلادي، بعد مرور اكثر من قرن على تفكك الدولة اليونانية البقتيرية وانهيارها.

وأسهم إسهاماً فعّالاً في تأسيسها شعب اليوتشجي الذي طرد في عام ١٧٤ ـ ١٦٥ ق. م على ايدي الهون من شمال شرقي الصين وجونغورن. وعقب ذلك، استقر اليوتشجي على الجهات الغربية من سلسلة جبال تيان شان، سيميريتشي وتركستان الشرقية، بعدما طردوا الساكيين من هناك. إلاّ أنهم، في عام ١٥٠ ق. م، وتحت ضربات الاوسون، سرعان ما اضطروا الى ترك موطنهم الجديد. فانتقل قسم كبير منهم، يُعرفون في المصادر الصينية بـ «دا ـ يوتشجي» (يوتشجي الكبرى)، عبر فرغانة، الى داخيا (طخارستان)، واستقروا على اراضي اواسط مجرى امودار يا، وعلى ضفته اليمنى، في حين بقي قسم صغير منهم في تيان شان وسيميريتشي. ونقلاً عن علماء الآثار، كان مركز اليوتشجي مدينة نخشاب (نوشيبولو ـ في المصادر الصينية) أو كاسان (غويشوان ـ بحسب المصادر الصينية). وبعد مرور بعض الوقت، قام اليوتشجي، مستغلين الاضطرابات الداخلية في الدولة اليونانية البقتيرية، بالاستيلاء على الضفة الشمالية لنهر امودار يا أيضاً. إلاّ أنهم لم يستطيعوا إقامة أي شكل من أشكال الاتحاد فيما بينهم، وعاشوا منفصلين أكثر من قرن من الزمان. وكانوا آنذاك يتألفون من خمس أسر مالكة: خيومي، وشاونمي، وغويشوان، وخيسى ودومي. وكان أعظم أمراء هذه الأسر الامير كيوتسزيوكيو (كودجولا كادفيز)، الذي أسس في بداية القرن الميلادي مملكة كوشان.

والأفاويه. وكانت سلع آسيا الوسطى التقليدية ـ سلع سمرقند، بخارى، تشاتشا وفرغانة ـ تلقى رواجاً واقبالاً شديدين.

الثقافة

كما هو معلوم، كان ضمن الامبراطورية الكوشانية سكان ذوو لغات وعادات وتقاليد وافكار مختلفة. وكان الأمر كذلك فيما يتعلق بالاديان والمعتقدات، ويتجلى ذلك، مثلاً، من خلال نقود ملوك كوشان. وعلى سبيل المثال، نلاحظ على القطع النقدية المضروبة في عهد كابنيشكا وخوفيشكا صور الآلهة الكوشانية البقتيرية ميخر ـ ميترا) (إلهه الشمس)، ماخ (إلهه او الـ القمر) آيتش (إلهة النار) فارّ (إله البركة او الوفرة والحظ) وإلخ. كما تصادفنا آلهات أو أرباب هنود: شيفا، سكاندا كومار، مخامسين. وكانت تصك النقود وعليها صور بوذا. أما الاقاليم الغربية من الامبراطورية، فكانت آلهتها يونانية الاصل «هيلانية»: سيرابيس، هركولي، هيليوس، هيفيست وغيرها..

ومن ضمن الآثار الثقافية، تجدر الاشارة الى المكانة المرموقة التي تحتلها المعابد والمقدسات الدينية البوذية، التي اكتشفت على ضفتي امودار يا: في سورخ ـ كوتال، ترمذ وغيرهما من الأماكن.

ويحظى باهتمام كبير الجتر الذي عليه صور موسيقيين وحاملي صفائر زهور. وقد عثر على هذه الصور في ترمذ وايرتوم وكاراتيبا، مثل صور بوذا على هيئة انسان، والنقوش البارزة والتماثيل المكتشفة في قندهار ومطهور وبقتيريا. ومع ذلك فإن النقوش البارزة والتماثيل تعتبر تضلُّعاً فنياً واستيعاباً من قبل الحرفيين المحليين لمنجزات فن النحت اليوناني البقتيري.

إن الكتابات على المصنوعات الخزفية، المكتوبة بالحروف اليونانية البقتيرية، والكاروشتية والبراهمية الهندية، والنقوش المكتوبة بالحروف الكوشانية البقتيرية ـ التي عثر عليها في كاراتيبا، والأرشيف المكتوب على الجلد من توبراك، كل هذه الكتابات لهي دليل على انتشار الثقافة على نطاق واسع في تلك الأزمان السحيقة في آسيا الوسطى.

البيض لآسيا الوسطى من الجهة الشمالية الشرقية، وتحت ضربات الساسانيين من الغرب).

الحياة الاجتماعية الاقتصادية

ثمة مواد قيمة عن الاوضاع الاجتماعية الاقتصادية في الامبراطورية الكوشانية تقدمها لنا الآثار المكتشفة ابان عمليات التنقيب التي جرت في ترمذ، وزارتيبا، وخالتشايان، وايرتوم ودالفيرزين ـ تيبا ـ في اوزبكستان، وكايكوباد ـ شاه، كوخنا ـ قلعة، سكسان ـ آخو وياڤان ـ في طاجيكستان، وآيخانوم، وسورخ كوتال، بغراميه وباغلان ـ في افغانستان. ويستدل بهذه المكتشفات على ان سكان المملكة الكوشانية كانوا يزاولون الزراعة (ذلك ما تشير اليه آثار شبكات الري المكتشفة جنوب اوزبكستان، وفي واحات كوباديان ووحش وحصار الطاجيكية، والقرى الريفية المحصنة على شكل مستوطنات منتشرة في كل مكان)، والحرف اليدوية والتجارة، وذلك ما تدل عليه أطلال المدن الكبيرة شمال طخارستان (دالفيرزين، وشهرناو، وكايكوباد ـ شاه، ياڤان والخ... ووجود حي الحرفيين). كما ان الادلة المادية والكتابات الاثرية (بطليموس مثلاً) تشير إلى ان سكان المملكة الكوشانية كانت لهم علاقات تجارية نشيطة بالصين، ومملكة البارثيين، وحتى روما وغيرها، عبر طريق الحرير العظيم الذي كان يمتد من عاصمة الصين القديمة ويمر بقرى باركانا، كانغيوي، شان وبارثيا، الى سوريا الخاضعة لحكم الامبراطورية الرومانية (كانت قائمة منذ ق ـ ٢ ق. م)، وكذلك بحراً، عبر مصر الخاضعة للحكم الروماني الى موانئ الهند الغربية.

كان أقدم خط تجاري يربط أوروبا ببلدان آسيا الوسطى يمر عبر الفرات ـ ميسوبوتاميا ـ ايكباتان (همذان) ـ غيكوتوبيلا (بارثيا) ـ انطاكيا مرو ـ بقتير (طخارستان) ـ جبال كاميد (كاراتيغين) ـ الابراج الحجرية (طاشكورغان في تركستان الشرقية) ـ كومول، حتى الصين. كان الحرير من السلع التي تنقل، بالدرجة الاولى، من الصين، الى أوروبا والبلدان الأخرى، ومن الهند التوابل

الحقائق الأساسية في حياتهم

في ق ـ ٥م تمكن الايفتاليت من إقامة دولة قوية لهم في آسيا الوسطى، افغانستان، شمال شرقي الهند وفي جزء من تركستان الشرقية. في بداية القرن الخامس حاربوا الساسانيين، منازعين إياهم على ايران الشرقية. كان بيروز (٤٥٩ ـ ٤٨٤م)، متخوّفاً من تعاظم قوى الايفتاليتيين على الحدود الشرقية والشمالية للامبراطورية، وحاربهم بقواته الرئيسية، إلا أنه مني بهزيمة منكرة. ونقلاً عن المصادر، استطاع الايفتاليتيون، بمكرهم، استدراج الفرس بعيداً، الى طريق طويلة مسدودة بجبل، ونصبوا لهم الكمائن من الخلف والجانبين، محاصرين بيروز والجيش الفارسي. وهكذا، وجد هذا نفسه وجيشه في مأزق لا مفر لهم منه، ولا مجال لهم للانسحاب او التقهقر، فاضطر الى الرضوخ لشروط ملك الايفتاليت، وحررت اتفاقية خطية بين الساساني وايفتاليت تعهد الاول بموجبها بالشروط التالية:

١ ـ عدم الاعتداء على حدود خايتال (الايفتاليتيين).

٢ ـ دفع إتاوة كبيرة (غرامة حربية).

٣ ـ تنازل إيران عن إقليم طالقان للايفتاليت.

٤ ـ موافقة بيروز على تزويج إحدى أخواته لملك الايفتاليت.

وهنا تجدر الاشارة، إلى أن حجم الاتاوة التي طلبها ملك الايفتاليت كان كبيراً جداً (٣٠ كيساً نقداً) لدرجة أن بيروز لم يستطع دفعها مرة واحدة، فقد تمكن فقط من دفع ٢٠ كيساً، ومقابل الأكياس العشرة الباقية رهن ابنه كوادا.

في عام ٤٨٤م، وبعد تحرير كوادا من الأسر، بفضل تدخُّل الامبراطور البيزنطي زينون (عام ٤٧٥ ـ ٤٩١م)، الذي كان يرغب في تجنب وقوع عدوان ايفتاليتي من ناحية شواطئ بحر قزوين، خرق بيروز الاتفاقية وعاد لتجديد نشاطاته العسكرية ضد الايفتاليت... بعد ذلك التقى الايفتاليت بالفرس، قرب مدينة غورغو، وهنا سقط الفرس في كمين كان الايفتاليت قد نصبوه بمهارة فائقة لعدوهم، واصيبوا بهزيمة منكرة، إذ قتل عدد كبير من الفرس، من بينهم بيروز

كذلك، فإن تماثيل الآلهة المصنوعة من الطين النضيج المشوي، والآلات الموسيقية، والتماثيل الذهبية وغيرها من الآثار التي عثر عليها علماء الآثار في منطقة مملكة كوشان، لهي دليل أيضاً على المستوى الفني الرفيع لشعوب آسيا الوسطى في تلك الحقبة الزمنية.

دولة الايفتاليت

إن المعلومات عن الايفتاليتيين في المصادر الكتابية تصادفنا اعتباراً من عام ٤٥٧م، حينما قام ملكهم «وحش النار» باخضاع تشانياغان وطخارستان وبداخشان.

أما عن اصلهم، فثمة آراء مختلفة. وأهمها ما جاء في المصادر التاريخية الصينية («تان ـ شو» مثلاً) «مملكة يي ـ دا(مملكة الايفتاليت) نشأت عن اليوتشجي الكبرى». ونقلاً عن لازاريا بارفسكي (مؤرخ ارمني ق. ق ٦ ـ٧م) فإنهم اقتبسوا اسمهم من اسم الملك ايفتالان. وورد الكلام نفسه في المصدر الآنف الذي اشرنا اليه تواً (كتاب «تان ـ شو»): «يي ـ دا ورد اسم ملكهم، ولما جاء خلفه (خلف الملك) اطلقوا هذا الاسم على الدولة».

ويرى المستشرقان الروسيان: ب. أ. بيرخ ون. إ. فيسيلوفسكي، أن الايفتاليتيين واليوتشجيين هم شعب واحد. بيد ان س. ب. تولوستوف له رأي يختلف كلياً، ويعتبرهم، استناداً إلى معطيات البعثة الكشفية الاثرية الخوارزمية، أنهم احفاد الساكيين ـ المساغيت الذين قطنوا منطقة الأرال، والذين امتزجوا بالهون واختلطوا بهم، وتسربوا اليهم وتغلغلوا في منطقتهم (في ق ـ ١ ق.م ـ ٤ م) قادمين من سيميريتشي، وأخذ الايفتاليتيون عنهم (أي عن الهون) لغتهم التركية.

كما يعرف الايفتاليتيون (انظر آسيان مارتسيلين، بروكوبي كيسارسكي) باسم الهون البيض، وذلك لكونهم حضراً ذوي بشرة بيضاء، ومتمدنين بالمقارنة مع أبناء الهون الآخرين الرحّل.

الحياة الاجتماعية الاقتصادية: نظام الحكم

بغض النظر عن بقاء مخلفات النظام التقليدي القديم، تجري في حياة السكان الفلاحين الريفيين والمدنيين، فإن إدخال نظام اللامركزية في الحكم كان يشير الى ظهور بوادر ومقدمات لانبعاث العلاقات الاقطاعية. وقد اثبتت دراسات علماء الآثار في خوارزم، منطقة بخارى، وسمرقند، وطشقند وسرخانداريا، انحطاط المدن القديمة، وتعاظم آخر قصور الاقطاعيين وأفنيتها. ولقد أدى ضعف الحكومة المركزية، الى تعزيز مستوى دور الاقطاعيين ورفعه، وازدياد المواجهات العسكرية، بين ملك الايفتاليت وبين ايران والخاقانية التركية الغربية، التي غالباً ما تلازمها أعمال عسكرية تركت أسوأ الاثر على النشاط الاقتصادي والتجارة مع بلدان آسيا الشرقية والغربية. وحمل ذلك كله الاقطاعيين على ترك الخدمة في الجهاز الحكومي، والانصراف عن الشؤون التجارية، والعمل بحماس على بناء المستوطنات المحصنة المزودة بالقلاع والأفنية والساحات. وعلاوة على ذلك، شكل الإقطاعيون فصائل عسكرية جيدة التسليح. وأثبتت الدراسات أن هذه المستوطنات (مثلاً، القصر ـ القلعة في بالاليك ـ تيبا في محافظة سرخانداريا) كانت تُجاري المدن بحجمها، فهي عبارة عن قلاع عظيمة مزودة بالقاعات، وجدرانها مزينة بالزخارف.

وتفيد مواد الحفريات الاثرية والمصادر الكتابية (كتب التاريخ الصينية، ومؤلفات بروكوبي والطبري) أنّ القسم الاعظم من السكان كان يزاول الفلاحة (يزرعون الحبوب والقطن والمحاصيل الزراعية الأخرى)، في حين بقي قسم منهم يعيش حياة البدو الرحل. وفي المدن والمستوطنات (وبغض النظر عن النشاط المتزايد في بناء القلاع ـ المستوطنات، كانت تجري أعمال إعادة بناء المدن الكبيرة كمدينة فاراخشا مثلاً)، تطورت الحرف اليدوية والتجارة. وأسهم الايفتاليتيون، بفضل موقع مدنهم ومستوطناتهم (على طرق الحرير المشهورة)، في التجارة الدولية إسهاماً فعّالاً، إضافة إلى التجارة مع الهند والصين وايران والبيزنطية. وكانت المواد الاساسية في التجارة بين الشرق والغرب، الحرير والزجاج الملون

نفسه، الذي سقط حريمه وعتاد جيشه ومؤونته في أيدي الايفتاليت. وبعد ذلك اضطرت ايران لدفع الإتاوة سنوياً. وقد دفعها الفرس إبان حكم ڤاليش (٤٨٤ - ٤٨٨م) وكافاد «١» (٤٨٨ - ٥٣١م) وبداية حكم كسرى انوشروان.

بعد ذلك، استولى الايفتاليت على وادي كابول، البنجاب، كاراشار، كوتشو، كاشغار وخوتان في تركستان الشرقية. وفي السنوات التي تلت ذلك، عاشت ايران ودولة الايفتاليت بسلام ووئام، وزد على ذلك تحالف الايفتاليت مع الساسانيين ضد البيزنطيين. فمثلاً، ضم كافاد «١» الى قواته القبائل التيمورية والفرسان الأرمن والايفتاليت وحارب البيزنطيين. وآنذاك قام الحلفاء بمحاصرة مدينة اميد الواقعة في شمال ميسوبوتاميا لمدة طويلة، ثم احتلوا المدينة وعملوا فيها نهباً وسلباً لمدة ثلاثة أيام. وآنذاك تعرضت للاعتداء والهجوم مدينة ايديسيا وغيرها من مدن ميسوبوتيا العليا. في عام ٥٠٦م، ونظراً الى تزايد نشاطات قبائل الهون على الحدود الشمالية لكلتا الدولتين، عقدت اتفاقية سلام بين ايران والبيزنطية، وبموجبها قدمت الأخيرة عدة تنازلات للحلفاء، الذين حصلوا على غنيمة كبيرة نقلت بالسفن عبر نهر دجلة الى قطيسيفون العاصمة الايرانية. كما حصل الايفتاليت ايضاً على حصتهم من الذهب البيزنطي.

وكما اشرنا آنفاً، كان كسرى أنوشروان (٥٣١ - ٥٧٩م) في بداية حكمه، يدفع الفضة إتاوة للايفتاليت. بيد انه، فيما بعد، استغل كسرى انوشروان الاعتداءات المنتظمة التي يشنها الاتراك الغربيون، الذين التفوا عام ٥٥٢م حول الخاقان استيم، على ممتلكات الاتراك، وألحق عدة هزائم بالايفتاليت، وفي عام ٥٥٤م، انتزع منهم طخارستان، وفي الفترة ما بين عام ٥٦٣ - ٥٦٧م، ألحق بهم هزيمة ساحقة وجعل بلادهم اقطاعية تابعة له. ولكن سرعان ما حصل الايفتاليت على دعم من الخاقانية التركية وتحرروا من نير التبعية الايرانية الساسانية. ولكن في نهاية ق. ٧م، ونتيجة لانجرارهم وانجرافهم في فلك الخاقانية التركية الغربية، فانهم لم يستطيعوا استعادة سيادتهم السابقة.

باختصار، لقد سقطت دولة الايفتاليت تحت ضربات الحكام الساسانيين والاتراك والهنود.

الثقافة

إن المعلومات المتوافرة لدينا عن الثقافة الايفتاليتية قليلة جداً، ولكن من الواضح أنها احتفظت ببعض سمات الثقافة الكوشانية وخصائصها، باعتبارها خليفة ووريثة.

كانت للشعوب الداخلة ضمن المملكة الايفتاليتية كتاباتها كما في السابق، في عهد الكوشانيين. فبالإضافة الى الكتابة السغدية (كانت على الطريقة البخارية) كانت، هناك، الكتابة الخوارزمية والكوشانية الايفتاليتية ذات الحروف المائلة. أما المناطق المجاورة لايران فكانت تُستخدم فيها الكتابة البهلوية.

كذلك كان الفن الملحمي فناً متطوراً، يصف نضال الايفتاليت ضد ايران الساسانية المعتدية على أراضي آسيا الوسطى. وهذا، مثلاً، يمت الى فترة نضال الملك الايفتاليتي، وحش النار، ضد بيروز، ويتجلى ذلك في رواية زوبير، في شخصية الملك غطفر، الذي هرب الى ايران بائعاً وطنه للاتراك.

كذلك كان فن تصوير الأيقونات فناً متطوراً، إذ كانت تصنع الأيقونات والتماثيل التي تصوّر الآلهة، والتماثيل الصغيرة من الطين النضيج (تراكوتا)، وترسم الصور الجدارية، التي تمثل نساءً ورجالاً جالسين، وتماثيل صغيرة لخدم يرتدون ملابس فاخرة (بالاليك ـ تيبا).

وتتجلّى ثقافة الايفتاليت الرفيعة في آثار القلاع المكتشفة (في بالاليك ـ تيبا مثلاً) وديار الإقطاعيين الدهقان (في آولتيبا، كافر قلعة)، والبنايات في افراسياب، تالي ـ بارزو وغيرها.

كذلك، فإن انتاج الزجاج الملون، الذي سبق لنا وتحدثنا عنه، لهو دليل ساطع على الازدهار الفني للبلاد.

والمصنوعات المنتجة من هذا الزجاج، والتوابل، والاصباغ، والاحجار الكريمة. كان الزجاج الملون يصنع في الاراضي التابعة لسيطرة الدولة الكوشانية، ويصدر الى الصين. كذلك تدل كميات القطع النقدية الكبيرة المكتشفة ابان الحفريات في مناطق آسيا الوسطى، على تلك المساهمة النشطة الفعالة التي كانت تقوم بها دولة الايفتاليت في ميدان التجارة الدولية.

كان الاقطاعيون الارسطقراطيون بالوراثة يديرون شؤونهم الاقتصادية باستغلالهم سواد الشعب والعبيد بصورة قاسية لا تطاق. وإضافة الى ذلك كله، كانت حكومة الشاه تدعم هؤلاء الارسطقراطيين بسبل شتى، ولولا هذا الدعم لما استطاعوا استدراج الناس للعمل لديهم، إذ كانوا يُستدرجون، على نطاق واسع، خصوصاً في مشاريع البناء وشق اقنية الري. وهكذا، وبصورة تدريجية، انتقلت الاراضي الخصبة الى أيدي الاقطاعيين وغدا الشعب خاضعاً لهم كلياً. وأدى ذلك الى ارغام الشعب على حمل السلاح والنهوض ضد مستعبديه وتدمير ممتلكاتهم دون شفقة او أسف. وما ثورة كادحي ايران بقيادة مزدك، التي جرت عند مفترق القرنين ٥ ـ ٦م، وثورة الطبقات الفقيرة في بخارى في الثمانينات ق ـ ٦م بقيادة ابرويا، الا من الادلة التي تثبت ذلك. ونقلاً عن المؤرخ النرشخي، عامل ابرويا الاقطاعيين بقساوة وعنف، ما حمل الكثير من الاقطاعيين والتجار الاثرياء على الفرار الى سيميريتشي، والاستعانة بخاقان كارا ـ تشورين، الذي ساعدهم وسيَّر جيشه إلى بخارى عام ٥٨٥م، حيث أخمدت الثورة واعدم زعيمها.

باختصار، كانت الحكومة المركزية، آنذاك، قد فقدت، كلياً، نفوذها في الحياة الاجتماعية السياسية. وكانت السلطة الحقيقية قد أصبحت في أيدي الاقطاعيين الارسطقراطيين المتمركزين في القلاع ـ المستوطنات المحصنة. اما الحكام المحليون، الذين يدعمهم الاقطاعيون، فقد كانوا في المدن الكبيرة ويحملون القاب شاه (في خوارزم، ميدان قلعة، ترمذ)، وخودات (في بخارى، فاردائزي)، اخشيد (في سمرقند، وكيش وفرغانة)، افشين (اوسورشانا)، تودان (تشاتشا)ودهقان (ايلاك). وكانوا، اسمياً، خاضعين لسلطة الخاقانية التركية الغربية.

الفصل الثالث

الخاقانية التركية

بادئ ذي بدء، ينبغي لنا القول إننا اعتمدنا، في جمع المعلومات عن الاتراك القدماء والخاقانية التركية، على مواد التنقيبات الاثرية والمصادر المختلفة المدونة بلغات شتى مثل: الصينية، والتركية القديمة، وما كتبه مؤرخو اليونان والرومان القدماء. ووفقاً للمعلومات المستقاة من هذه المصادر، فإن الأتراك يعتبرون من أقدم شعوب آسيا العريقة. لقد قطنوا مساحة شاسعة مترامية الاطراف تمتد من هانغاي الى التاي، وفي أراضي آسيا الوسطى الفسيحة الرحبة، حتى كوبان غرباً. وذاع صيتهم في الفترة ما بين عامي ٢٠٠٠ ـ ١٠٠٠ ق. م، وكانت لهم دولة عظيمة بالمقارنة مع الدول التي كانت قائمة آنذاك. وكانت اكبر دولة لهم وأعظمها قد اقيمت في عام ٢٢٠ ق. م في عهد ماتا ـ جباغو الحاكم الاعلى الثاني لهذه الدولة (٢٠٩ ـ ١٧٤ ق. م). وخضعت لسلطة هذه الدولة الاراضي الواقعة ما بين بحري اليابان والخزر (قزوين). لقد سجلت دولة الهون (وهي ايضاً دولة تركية طبعاً) صفحات ناصعة في التاريخ. وكما هو معلوم، كان الهون قد طردوا من شمال الصين في مطلع القرن الثالث للميلاد على أيدي التابغاشيين (تحدّروا من قبائل الدون ـ خو الرّحل، حيث لعبت قبيلة التوبا الدور الأساسي بين هذه القبائل)، ودامت دولتهم لمدة تزيد على ١٠٠ سنة، أي حتى نهاية القرن الرابع للميلاد.

وكان الاتراك قد بلغوا درجة كبيرة من التطور في عهد امبراطوريتهم المعروفة بامبراطورية «الاتراك الزرق»، التي يعتبر مؤسسها زعيم القبيلة الملقب بـ «اولوغ

للجرجانيين، الذين كانوا يهدفون الى الاعتداء على سيادة الاتراك، وفرض سيادة الخاقانية التركية عليهم.

دام حكم موغان ـ خاقان مدة ٢٠ سنة (٥٥٣ ـ ٥٧٢م). وفي عهده صارت الخاقانية التركية دولة قوية عسكرياً وسياسياً. وخلال هذه السنوات، اتسعت مساحة الخاقانية، التي كانت ممتدة من هانغاي الى التاي، وشملت المناطق المجاورة لها ووصلت الى المناطق الغربية لآسيا الوسطى. وخلالها أيضاً اجتاح الاتراك دولة الايفتاليتيين (الهون البيض) وبسطوا نفوذهم وسلطتهم حتى حدود امودايا وبحر الآرال. وكذلك في عهد استيمي ـ خاقان وطدوا اقدامهم في سيميريتشي (تقع ضمن حدود كازاخستان حالياً)، وفي تشاتشا (طشقند حالياً) والمناطق المجاورة لها، وفي خوارزم. وفي الربع الثالث من القرن السادس فرض الاتراك سيطرتهم على الامارتين الصينيتين «تشجو» و«تسي» ووصلوا حتى البسفور (كيرتش)، وفي عام ٥٨١م حاصروا قلعة خيرسونوس المحصنة.

في أواسط القرن السادس، ازداد النفوذ الدولي للخاقانية التركية ازدياداً ملموساً. وفي تلك الأثناء، وكما هو معلوم، كانت الخاقانية تقيم علاقات سياسية واقتصادية مع الصين، والهند، وايران وحتى مع البيزنطية النائية. ومنذ ذلك الحين، وبالتحديد (عام ٥٧١م)، بدأ التغلغل التركي باجتياز الاتراك لنهر امودايا وقدومهم الى خراسان. وسرعان ما تمكن الاتراك من ترسيخ أقدامهم في بادغيس، بلخ، وفي مناطق طخارستان الأخرى.

وهكذا، في أواسط القرن السادس، غدت الخاقانية التركية دولة عظيمة جداً تحاذي حدودها الصين شرقاً، وامودايا وبحر الآرال غرباً.

وفي العام ٥٧٢م توفي موغان ـ خاقان، فخلفه أخوه ارسلان توبا ـ خاقان، الذي واصل سياسة والده، وبذل جهوده كلها لتعزيز الخاقانية وتحصينها والمحافظة على وحدتها. وتجدر الاشارة الى أنه إبان حكمه، استمرت الامارتان الصينيتان الآنف ذكرهما «تشجو» و «تسي» بدفع الاتاوة للخاقانية التركية. صحيح انهما حاولتا عدم دفع الاتاوة، وشق عصا الطاعة والعصيان، على أن المحاولة احبطت

جابغو ـ أي الأمير العظيم» (اسمه الحقيقي مجهول). كان له ابنان عظيمان: «بومين» و«إستيمي»، تغنت بهما الآثار الادبية التركية القديمة. كان الاول حاكماً للجزء الشرقي للخاقانية، وحكم الثاني الجزء الغربي منها. لقد قام اولوغ جابغو وابناه بمحاولات ناجحة جداً لاخضاع القبائل التركية المجاورة. ففي عام ٥٤٥م مثلاً، احرزوا نجاحاً باهراً في بسط سلطتهم على القبائل الاويغورية، التي كانت من اكبر القبائل أو الشعوب التركية وأقواها، وبعد مضي ١٠ أعوام ـ أي في عام ٥٥٥م ـ كانت قبائل آسيا الوسطى كافة، ومن ضمنها كيدانيو غربي منشوريا، وقيرغير الينيسي المشهورة بكثرة عديدها وعدتها وقوتها القتالية، قد اعترفت بسلطة الاتراك عليها.

وبعد ذلك، نقل مقر القيادة إلى أعالي نهر اورخون . ولكن سرعان ما اصطدم الاتراك بالصينيين. وهنا تجدر الاشارة إلى أن اباطرة «فيّ» بذلوا قصارى جهودهم لاخضاع الجزء الشرقي من الخاقانية لسلطتهم، فراحوا يجرون المناوشات المسلحة من حين الى آخر، ويرسلون نبلاءهم الى القبائل التركية، والهدايا الثمينة الى جحافل الخاقانية، ويكرمون ذوي المناصب الرفيعة، العسكريين منهم والمدنيين، ويصاهرونهم.

وفي عهد قارا ايسيك ـ خاقان، ابن «بومين» وخليفته (توفي عام ٥٥٢م)، اصطدم الاتراك بخصم شديد آخر، ألا وهو حاكم خانية جرجان (حوالى ٣٥٠ ـ ٥٥٣م)، الذي كانت بلاده تشمل الأراضي الممتدة بين جبال هانغاي والتاي، أي مساحة منغوليا حالياً وشمال الصين. وهكذا، في نهاية عام ٥٥٢م قام الجرجانيون، بزعامة دينشوكازين، باجتياح اراضي الخاقانية التركية. إلا أنهم في هذه المرة اخفقوا في اخضاعها لسيادتهم، إذ استطاع قارا ايسيك ـ خاقان مقاومة العدو المعتدي والصمود أمامه، كما تمكن من إلحاق هزيمة فادحة به. ومرة ثانية، حاول الجرجانيون اخضاع الاتراك لسلطتهم في عهد موغان ـ خاقان، شقيق قارا ايسيك ـ خاقان وخليفته، في عام ٥٥٣م، الا ان هذه المحاولة باءت بفشل ذريع وكانت وخيمة العواقب، فقد قام موغان ـ خاقان بتوجيه ضربة ساحقة ماحقة

ودمره، في حين قام أنصار تورامين بحرق مقر قيادة ايشبارا عن بكرة أبيه وأحرق داخله ايشبارا نفسه ايضاً.

وبعد إيشبارا توالى على عرش الخاقانية بالترتيب كل من تورفاغا ـ خاقان، تومان ـ خاقان، شيبي ـ خاقان وتشولوك ـ خاقان. على ان فترات حكمهم لم تكن طويلة. ولم تجر في هذه الحقبة الزمنية من تاريخ الخاقانية التركية أحداث هامة تذكر، إلى أن تولى العرش قارا تشورين ـ خاقان (عام ٦٠٠م). ونقول بصراحة إن المصادر لم تذكر معلومات تبعث على العزاء، باستثناء توالي أربعة من الخاقانات أو خمسة خلال ١٦ سنة (٥٨٤ ـ ٦٠٠م)، مما يدل على انعدام الاستقرار السياسي في الخاقانية. والادلة على الاضطرابات وعدم الاستقرار في عهد قارا تشورين ـ خاقان، المشهور في التاريخ باسم «بوغو ـ خاقان» (أي الخاقان البطل) (عام ٦٣٠م)، كانت متوافرة وموجودة، إذ ان فترة حكم هذا الخاقان كانت مليئة بعمليات تمرد وعصيان نبلاء القبائل ووجهائها وحشم القصر وخدمه، وتميزت بالفوضى وتصاعد مكائد اباطرة «تان» ودسائسهم. فمثلاً، جاءت في المصادر معلومات تشير الى مؤامرة دبرت ضد الخاقان، وترأسها جاندار، احد كبار مسؤولي الدولة. صحيح ان المؤامرة فشلت، وتم اكتشافها ونال مدبروها جزاءهم، وبناءً على أمر من قارا تشورين جرى إعدام اقرباء جاندار والمقربين منه كافة، أما جاندار نفسه، مدبر المؤامرة، فقد تمكن من الاختفاء، ويبدو أنه فر الى الصين برعاية أسياده وحمايتهم.

وسرعان ما اقتحمت حدود الخاقانية التركية افواجٌ صينية، واندلعت حرب حقيقية، وهُزم الاتراك في معاركها الدموية الطاحنة. أما قارا تشورين ـ الخاقان نفسه فقد وقع في الأسر، وأرغم على الاعتراف بالسلطة العليا للامبراطور الصيني. وتشير المصادر الى ان جاندار الآنف الذكر، كان مسبِّباً للهزيمة التي مني بها الخاقان.

ومنذ ذاك الحين (عام ٦٣٠م)، ونتيجة لاشتداد حدة النزاعات القبلية، وتفاقم الشقاق بين افراد الأسرة الحاكمة، ولا سيما تعاظم السياسة العدوانية من قبل اباطرة «تان» (٦١٨ ـ ٩٠٧م)، انقسمت الخاقانية التركية الى قسمين: شرقي

وقضي عليها على أيدي القوات التي ارسلها ارسلان توبا ـ خاقان الى هاتين الامارتين. باختصار، استطاعت الخاقانية المحافظة على وحدتها الى حد معلوم، في عهد هذا الخان، الذي كان نوابه في المناطق البعيدة والقريبة يخدمونه بأمانة واخلاص ويحملون شعوبهم (قافي) على الامتثال للخاقان الأعلى واطاعته.

بَيْدَ أن اسباباً ادت الى الاخلال بأمن الخاقانية التركية واستقرارها ووحدتها، ولم تكن أسباباً داخلية فحسب، كالنزاعات القبلية والخلافات الداخلية، بل خارجية ايضاً، تمثلت في دسائس الاباطرة الصينيين ومكائدهم ولا سيما في الجزء الشرقي من الخاقانية، والتي كانت تزداد حدة وتوتراً من عام إلى آخر. وراح الصينيون يلجأون إلى طرق شتى (الرشاوي والاغراء بالوعود) لشراء نواب الخاقان في المناطق، وإلى استدراج زعماء القبائل. وكانت هذه المحاولات تعطي ثمارها احياناً فيسقط عدد من ذوي النفوس الضعيفة، ومنهم بعض زعماء القبائل، الذين يطمعون في تحقيق مآربهم الشخصية، في حبائل الصينيين وشراكهم، امثال تورامين، ابن موغان ـ خاقان، الذي اصبح ألعوبة في ايدي الرسل والمبعوثين الصينيين. لم يتوقف الصينيون عن سياستهم العدوانية الموجهة ضد الجزء الشرقي من الخاقانية التركية. ففي عهد الخاقان شيبي (٦٠٩ ـ ٦١٩م)، جرت اشتباكات عسكرية مكشوفة بين الدولتين، وخرجت الخاقانية من هذه المعركة بشرف، واستطاعت الدفاع عن سيادتها واستقلالها. وعلاوة على ذلك، ضاعف الاتراك نشاطاتهم، فمثلاً تشير المصادر الى ان الخاقان «خيلو» (٦٢٠ ـ ٦٣٠م) شن ٦٧ حملة عسكرية على الصين خلال فترة حكمه.

وبعد أرسلان توبا ـ خان بدأ النزاع على السلطة العليا في الخاقانية بين تورامين الآنف ذكره، و«إيشبارا»، أصغر أبناء أرسلان توبا ـ خان، وانتهى بفوز «إيشبارا».

كان قارا تشورين قد اختير وصياً على العرش وخاناً أصغر، وكان مقر قيادته في مكان ما في تيان ـ شان الشمالية. وعلى الرغم من ذلك، استمر النزاع بين تورامين وإيشبارا، الذي انتهز الفرصة في عام ٥٨٤م، وهاجم مقر قيادة أخيه

بالاتراك هزيمة فادحة. لكن الاتراك لم يستكينوا، فبعد مرور ٧ سنوات (عام ٦٨٧م) أعادوا الكرة وانتصروا على الصينيين، مدمرين قوات الغزاة تدميراً نهائياً.

ومنذ تلك الفترة (عام ٦٨٧م) بدأت الخاقانية التركية تنتعش مجدداً وللمرة الثانية. على ان هذا الانتعاش لم يدم طويلاً. فبعد مقتل ايلتاريش كولتوغ ـ خاقان (عام ٦٩٢م) ثارت حركات التمرد والعصيان والنزاعات بين أبناء الاسرة الحاكمة، وساد الشغب والفوضى الخاقانية التركية مجدداً.

بعد مقتل ايلتاريش كولتوغ ـ خاقان، تولى العرش أخوه كاباغان ـ خاقان (٦٩٢ ـ ٧١٣م)، الذي تمكن من اعادة الاستقرار السياسي الداخلي إلى الخاقانية، ومن المحافظة على وحدتها وسيادتها واستقلالها. كذلك فإنّه، علاوة على ذلك، جهز جيشاً سار به غرباً حتى وصل الى سمرقند. بيد أنه هزم على ايدي العرب في المعركة التي دارت بينه وبينهم (عام ٧١٢ ـ ٧١٣م).

وعقب مصرع كاباغان ـ خاقان، لم يستطع احد من ابنائه، ينال بوغا ـ خان، يولينغ ـ تيغين الإمساك بزمام الحكم والسلطة، لا بل حتى إنهم تورطوا في نزاعات مع زعماء القبائل المتمردة. ولم ينجُ من هذه النزاعات الدامية سوى أبناء ايلتوروش كولتوغ ـ خاقان الصغار ـ بيلغا ـ خان، وكولتيغين.

هنا لا بد من التوقف عند نقطة مهمة لإلقاء الضوء على العديد من الأمور الغامضة المتعلقة بالتاريخ اللاحق للخاقانية، ولا سيما أسباب عدم الاستقرار السياسي فيها، والذي ظهر فوراً بعد مقتل كاباغان ـ خاقان، فقام هذا الأخير، كما يظهر، بفتح الطريق أمام النزاعات القبلية والشقاق والخلافات بين افراد الأسرة الحاكمة إبان حياته، وذلك بانتهاكه وخرقه الاعراف والتقاليد السائدة بين الاتراك والمتوارثة منذ القدم والمتبعة في تعيين الوصي على العرش، والتي كان ينبغي بموجبها أن يكون الوصي أحد ابناء الراحل ايلتاريش كولتوغ ـ خان، وبيلغا ـ خان بالتحديد. أما كاباغان فقد أوصى بالعرش الى ابنه بوكو ـ خان، ومنحه المناطق الغربية من الخاقانية. أدى ذلك طبعاً، الى استياء الاخوين بيلغا ـ خان وكولتيغين من

وغربي. أو بصورة أدق، لقد فقد الخاقان السيطرة على الجزء الغربي من الخاقانية، فصار زعماء القبائل (الجابغويون) يديرون شؤون قبائلهم بصورة ذاتية مستقلة.

وهكذا، عاش الجزء الشرقي من الخاقانية التركية أكثر من ٥٠ سنة (٦٣٠ - ٦٨٢م)، مستقلاً عن الصينيين استقلالاً اسمياً. إلا أن حكام الجزء الشرقي الاتراك، لم يرضوا بهذا الوضع، وبذلوا قصارى جهودهم للتخلص من وصاية الصينيين اللجوجين، على أن جهودهم أخفقت لأنّ البلاد كانت ممزقة والقوى مشتتة. ولم يتم جمع قوى الاتراك الشرقيين المشتتة وتوحيدها إلا في عام ٦٨٢م على يد كولتوغ - خاقان، الذي اعلن استقلال الخاقانية.

حكم كولتوغ خاقان باسم ايلتاريش كولتوغ - خاقان. انه هو نفسه والد الزعيمين التركيين البارزين بيلغا - خاقان وكولتيغين، اللذين يحتلان مكانة رفيعة ومرموقة في تاريخ الشعوب التركية.

بيد أن ايلتاريش كولتوغ - خاقان لم يفلح في التغلب على الصينيين تغلباً تاماً وبصورة نهائية. ففي عام ٦٩٧م التف زعماء القبائل التركية ووجهاؤها حول قبيلة اشين، وتمردوا على الصينيين، إلا أن النجاح لم يحالفهم في هذه المرة ايضاً، وقام الجيش الصيني بسحق حركة التمرد هذه. وانسحب كولتوغ تشاغاي (ايلتاريش - خان)، زعيم المتمردين إلى أعماق الغابات مع عدد من جنوده الذين بقوا على قيد الحياة. وجاء في الكتابات القديمة المدونة نقشاً على ضريح تونتيوكوك، وزير ايلتاريش كولتوغ - خاقان، الذي اشتهر ببعد نظره ومراسه، أن كولتوغ تشاغاي استطاع حشد ما يربو على ٧٠٠ مقاتل في الغابات في بادئ الأمر، وتمكن من إلحاق هزيمة منكرة بـ «جيتى اوغوز - أي الاويغوريين» حلفاء اباطرة «تان». الأمر الذي ضاعف من قوى كولتوغ تشاغاي وأنصاره، وأدى إلى تدفق المقاتلين الجدد المؤيدين من كل حدب وصوب، وانضمامهم الى قوات كولتوغ تشاغاي، الذي فاق عدد رجاله وجنوده الـ ١٢ الف مقاتل. ورأى أنه غدا بمقدوره مواجهة الجيش الصيني. وفي عام ٦٨٠م جرت أول معركة بين الاتراك والجيش الصيني. إلا ان الجيش الصيني، الذي يفوق قوات كولتوغ تشاغاي من حيث العدد والعتاد، ألحق

الشرقية، وأقاموا مكانها الخاقانية الاويغورية (٧٤٥ ـ ٨٤٠م).

أما الخاقانية التركية الغربية فقد استطاعت، بغض النظر عن انعدام جهاز السلطة المركزية القوي، أن تحافظ على استقلالها، وتمكنت من التوغل في آسيا كقوة عسكرية سياسية ضخمة. لقد كانت دولة عظيمة، تمكنت في النصف الثاني من القرن السابع، من بسط سلطتها على المناطق الممتدة بين تركستان الشرقية وبحر قزوين. وقد لعبت المدن والعلاقات التجارية مع الصين وإيران والبيزنطية دوراً كبيراً مهماً في تطور الخاقانية وازدهارها.

وبحسب المعلومات التي أوردها الرحالة الصيني «سيوان تسزين» (حوالى ٥٩٦ ـ ٦٦٤م)، كان ضمن مدن الخاقانية التركية الغربية، علاوة على مدن مرو، امول، بخارى، سمرقند، تشاغاي، اسبيجات، مدن عديدة مشهورة في تالاس وسيميريتشي وسوياب العاصمة، حيث كانت على سبيل المثال، الأسواق «المعارض» التجارية الضخمة التي يشارك فيها التجار الأجانب.

في النصف الثاني من القرن السابع، عمّ الانقسام والتفتت الاقطاعي الخاقانية التركية الغربية ايضاً. فتسبَّب ذلك في تجزئة الخاقانية الى ١٠ اجزاء على أسس قبلية، وقد جرى ذلك في عهد الخاقان «شوبولو» (٦٣٤ ـ ٦٣٨م). وهكذا، وبموجب هذا «الاصلاح» الاداري، قسمت شعوب شرقي نهر «تشو» الى خمسة اقسام (طوائف) نالت تسمية عامة «دولو»، في حين أطلقت تسمية «نوشيبي» على سكان الضفة الغربية (وكانوا هم أيضاً قد قسموا إلى خمسة أقسام «طوائف»). ولم تمض مدة طويلة حتّى انفردت كل طائفة، بإعلان استقلالها. وهذا ما كان ينشده الصينيون، الذين سرعان ما ارسلوا قواتهم (عام ٦٥٨م) وفرضوا سيادتهم على الاتراك الغربيين.

لم يمتثل سكان الخاقانية التركية لإدارة الغزاة المحتلين وأبدوا مقاومة لمأموريهم. وفي عام ٧٠٤م، استطاع الخاقان خوايداو استعادة سيادة الخاقانية واستقلالها، ولكن لمدة غير طويلة، إذ سرعان ما دبت الانقسامات والنزاعات

قرار عمهما، واضمر له الحقد. ولما سار الأخير بجيشه الى الغرب (ضد العرب على ما يبدو) وقتل في الحرب، رفض الاخوان الامتثال لـ «بوكو ـ خان» وتمردا عليه. وتم الاستيلاء على معسكرات كاباغان ـ خاقان ونهبها، وقتل انصار الخاقان وحاشيته والمقربين منه كافة، وكان بوكو ـ خان من بين القتلى. وتفيد الكتابات المنقوشة على ضريحي كولتيغين وبيلغا ـ خاقان، أن العبء الاكبر لهذا النزاع تحمّله كولتيغين، الذي تصفه المصادر مقاتلاً شجاعاً ذكيّاً، ورجل دولة ذا مراس وهمة عالية.

اما الأخوان بيلغا ـ خان وكولتيغين، على الرغم مما كان ينتظره ويتوقعه زعماء القبائل ووجهاؤها، فإنهما لم يتنازعا على السلطة العليا، بل على العكس من ذلك فقد اتفقا على ضرورة انتقال العرش الى الأخ الاكبر ـ بيلغا ـ خان، واكتفاء كولتيغين بتولي منصب القائد الأعلى للجيش. عاش بيلغا ـ خاقان وكولتيغين في سلام ووئام ومودة، وكانا يتعاونان في ادارة شؤون البلاد ويشرفان عليها معاً. ولعب في ذلك تونغيوكوكو، أحد أفراد حاشية والدهما، الذي بقي في خدمة بيلغا ـ خاقان دوراً مهماً جداً.

لقد قضى بيلغا ـ خاقان وكولتيغين على التفتت والانقسام الاقطاعي في البلاد، وأخضعا القبائل المتمرّدة، كقبائل الاوغوز والتتر وغيرها، وأقاما علاقات حسن جوار مع الصين. باختصار، استطاع الأخوان إقرار السلام والهدوء والأمن في الخاقانية، ولو لبعض الوقت. ولكن بعد وفاتهما (توفي كولتيغين في الحرب ضد الـ«توكوزوغوز» في عام ٧٣١م، اما بيلغا ـ خاقان فقد مات مسموماً بعد مرور ثلاثة اعوام على وفاة أخيه، أي عام ٧٣٤م) ثارت الفتن وحركات العصيان والفوضى في الخاقانية التركية. وبدأت الانقسامات الاقطاعية بصورة متعاظمة.

وبعد بيلغا ـ خاقان، خلفه على العرش ابناه: إيتشان خاقان (٧٣٤ ـ ٧٣٩م) وتينغري ـ خاقان (٧٤٠ ـ ٧٤١م)، اللذان حاولا مواصلة سياسة أبيهما، إلا أنّ النزاعات القبلية ودسائس القصر ومكائده المتزايدة شدة واستفحالاً، لم تمكنهما من ذلك. وفي عام ٧٤٥م أطاح الـ «توكوزوغوز» وقبائل أخرى بالخاقانية التركية

الاجتماعات الحكومية كافة، وحتى في استقبال سفراء الدول الأجنبية. ويذكر الطبري أنه كان للمرأة فضل كبير في الامجاد والمكانات العظيمة التي بلغها الخاقانون ونالوها.

وفيما يتعلق بمعتقدات الاتراك، تفيد المصادر أنهم في المرحلة المبكرة من تاريخهم كانوا يعبدون الحيوانات والطيور (كالعقاب والذئب... الخ)، والكواكب كالشمس والقمر، وطبقات السماء (كوك تينغري). ومن ثم صاروا يؤمنون بخلود الروح ووحدانية الله (اغلب الظن وجود رب واحد لكل قبيلة)، ويعتقدون ان الرب هذا وحده، دون غيره، هو الذي خلق المخلوقات والكائنات كافة، على انهم كانوا يعتقدون ان هذا الرب يسكن طبقة السماء التاسعة. وابان حكم توبو ـ خاقان (٥٧٢ ـ ٥٨١م) جرت محاولة لنشر الديانة البوذية في الخاقانية. ولدى عودة بوغو ـ خاقان (٧٥٩ ـ ٧٧٩م) من رحلته الى التيبت، حاول بث معتقدات المذهب «الماني» المشهور بين الاتراك، إلاّ أنّ المحاولتين باءتا بالفشل. باختصار، لقد كانت معتقدات الاتراك القدماء عرضةً لسيطرة العناصر الشامانية (الخرافية أو السحرية).

في المؤلَّف الذي وضعه فخر الدين مبارك المرثرورودي: (نسبة إلى مدينة ميرڤ الواقعة في آسيا الوسطى على ضفاف المورغاب) بعنوان «تاريخ مبارك شاه» ولم يُصِبْ شهرة واسعة (فرغ منه في عام ١٢٠٦م)، نقف على معلومات تشير إلى أن الاتراك كانوا شعباً مثقفاً، ويقول المؤرخ: «كانت لدى الاتراك كتابتهم. ومع انهم كانوا يعرفون أسرار السحر والكواكب ويعبدونها، إلاّ أنهم كانوا يعلمون أبناءهم وأطفالهم القراءة والكتابة. وكان لهم نوعان من الكتابة: السغدية والتوكوزوغوزية. كانت الحروف السغدية تتألف من ٢٥ حرفاً، لكنها تحتوي على حروف الـ «ض 3ay»، و«ظ، ز 3a» و«غ»، وتكتب من اليمين الى اليسار، بحيث تكون الحروف منفصلة عن بعضها... والتوكوزوغوزية تتألف من ٢٨ حرفاً، تكتب من اليمين الى اليسار بصورة غير مترابطة... كان الاتراك قادرين على نظم الأشعار ـ القصائد والرباعيات....».

الاقطاعية من جرّاء الاغارات المستمرة التي كانت تشنها القبائل التركية الأخرى، ولا سيما تلك التي كانت تقطن شمال الخاقانية، مما حمل قسماً من الاتراك على الانتقال الى شرقي تركستان حيث اقاموا تحالفهم السياسي. وهم مشهورون في المصادر الصينية بالاتراك الشاتو (الجبليين) وبالتوكوزوغوز في المصادر العربية.

في النصف الثاني من القرن الثامن، سقطت الخاقانية التركية الغربية تحت هجمات الكارلوكيين وضرباتهم. وهؤلاء استوطنوا سيميريتشي، عندما قدموا من التاي. وقبل مجيء العرب، كانت الخاقانية عبارة عن زهاء ١٥ إمارة مستقلة. ونقلاً عن الطبري، كان حاكم طخارستان هو جابغو، وحاكم بخارى ـ قباج ـ خاتون، وآش ـ شاشي كورسول، وبلخ ـ نيزاك ـ طرخان الخ...

بعض الحقائق عن الحياة الاجتماعية الاقتصادية

كانت الغالبية العظمى من سكان الخاقانية من القبائل الرحل (ولا سيما في القسم الشرقي)، وشبه الرحل الذين يهتمون بتربية الماشية. وكانوا في القرى والخيام يصنعون الملابس من جلود الماشية والأدوات المنزلية المختلفة، ولا سيما اللباد المصنوع من الصوف. كما كانوا يصنعون بأنفسهم الخيام والمعدات الضرورية اللازمة لها. امّا في مدن الجزء الغربي من الخاقانية، فكانت الصناعة والتجارة أكثر تطوراً ورقياً، وكان الناس أكثر تحضراً وتمدناً، ما أدّى إلى ازدهار الصناعة والتجارة والزراعة.

وخلاصة القول، لقد أخذت الاشكال او الصيغ المبكرة للعلاقات الاقطاعية تشق طريقها نحو التطور، على الرغم من سيادة النظام القبلي.

وحول عادات الاتراك ومعتقداتهم في الفترة ما بين القرن الخامس وبداية القرن الثامن. تجدر الاشارة اولاً الى أنه، خلافاً للشعوب الأخرى، لعبت المرأة دوراً مهماً في المجتمع التركي. فمثلاً، لدى دخول الاطفال على آبائهم في الخيمة، كانوا ينحنون أمام أمهاتهم، وبعد ذلك يطرحون التحية على آبائهم ويسلمون عليهم. كذلك كانت المرأة تسهم في الاشراف على الأمور المنزلية، وتشارك في الحروب وفي

الفصل الرابع

آسيا الوسطى ابان حكم الخلافة العربية

فتح آسيا الوسطى من قبل العرب

ضُمت آسيا الوسطى إلى الخلافة العربية في عهد الأمويين، بعد حروب دامت أكثر من ٤٠ سنة (٦٧٤ ـ ٧١٥م). قبل التطرق الى تاريخ هذه الحروب العسكرية السياسية، نود القول إن أهم أسباب نجاح العرب في ذلك يكمن في الانقسام والتفتت الاقطاعي في آسيا الوسطى، والنزاعات الاقطاعية التي شملت آنذاك تلك المنطقة الشاسعة المترامية الأطراف. ووفق المصادر المخطوطة (العربية والصينية) ومواد الأبحاث الأثرية، كان هنا، قبيل قدوم العرب إلى آسيا الوسطى، زهاء ١٥ إمارة اقطاعية وهي: إمارة تشاغانيان ـ أميرها تشاغان ـ خودات، امارة ترمذ ـ حاكمها ترمذ ـ شاه، وإمارات ڤاشجيرد، كوباديان وخوتيلون، الواقعة بين نهري فاخش وبيانج، وقرى: ـ كيرران، وشوغنان و فاخان، الواقعة في منطقة غورنو ـ باداخشان ذات الحكم الذاتي التابعة لجمهورية طاجيكستان، وراشت وكوميد الواقعتان في اعالي فاحش (حالياً كاراتيغين في جمهورية طاجيكستان) والمأهولتان بالكوميج، وتنتمي لغتهم الى اللغات التركية، وقرية بوتيم في اعالي زرافشان. وسغد التي كانت تتألف آنذاك من ثلاث إمارات صغيرة:

سغد عاصمتها سمرقند (حوض نهر زرافشان من بيانجيكينت إلى كيرمين)، الجزء الغربي لوادي نهر زرافشان ومركزها بخارى، ووادي نهر قاشقاداريا

اما عن البنية الاجتماعية والسياسية للاتراك، فإن المعلومات المتوافرة لدينا قليلة جداً ايضاً. ولكن بامكاننا القول إن الاسرة كانت أساس المجتمع، وتعمل على توحيد العشيرة (اوروغ). وكانت العشائر المتقاربة تتّحد لتكوِّن قبيلة. وكانت القبائل، تبعاً لظروف داخلية وخارجية تتحد معاً في منظمة سياسية، يترأسها الامراء (جابغو)، الخانات الكبار والصغار، الذين يرد ذكرهم في المصادر: «خاقان»، «خان»، «تانخو»، «جابغو»، «ايلتابار»، «شاز» الخ..

ومع ذلك، كان المجتمع التركي طبقياً ويتألف من الارسطقراطيين (الخواقين، الجابغويين، الايلتابارين، والطرخانيين)، ومن الناس البسطاء العاديين، أي الجزء المستعبد او المستغل من السكان الذين يطلق عليهم (كارا بدوين).

لقد كانت الخاقانية التركية دولة ذات سلطة مركزية ضعيفة.

الخوارزميين. وبناء على الاتفاقية التي عقدت بين خوارزم شاه والأمير عبد الرحمن، قام الاول بتقديم ١٠٠٠٠ رأس من الماشية المنتقاة كإتاوة. وضمن هذا السياق العام، يأتي كلام غوريك حاكم سمرقند (٧١٠ ـ ٧٣٧م) الموجه الى قتيبة: بأن الانتصارات لا يحققها إلا «بفضل مساعدة إخوان أخيه وأقربائه». تجدر الاشارة هنا، الى ان سقوط خوارزم عجّل ايضاً في نهوض الحركة الاجتماعية القوية المشهورة في التاريخ بحركة الخرّميين (طائفة دينية قائمة على مبدأ المزدكية والمساواة الاجتماعية والملكية الجماعية). ويمكننا القول إن تمرد خورزاد كان، والى حد ما، مقدمة لحركة الخرّميين، التي كانت، من حيث جوهرها، والمعبّر عنها بكلمات س. ب. تلستوف: «حركة مناهضة للاقطاعيين، تضم طوائف قروية ودهماء المدينة المناوئة لاصحاب القصور الفخمة والوجهاء الاقطاعيين ذوي النفوذ الكبير».

سير الفتوحات العربية

بدأت الجيوش العربية عام ٦٣٣م تحركها شرقاً: الى فلسطين، سوريا، العراق وايران الساسانية. وفي ذلك العام تمكن العرب من اخضاع فلسطين، وفي عام ٦٣٤ ـ ٦٣٥م فتحوا سوريا، وبعد عدة اخفاقات وهزائم، تمكن العرب من التغلب على مقاومة الساسانيين. وفي الاول من يونيو عام ٦٣٧م استطاعوا توجيه ضربة انتقامية للجيوش الايرانية في القادسية. وبعد خرق اتفاقية السلام المعقودة بين الطرفين من الجانب الايراني، وفي معركة نهاوند، بالقرب من اكباتان (اصفهان حالياً)، مُني الايرانيون بهزيمة ساحقة ماحقة، وتم القضاء على أسرة الساسانيين، وهرب آخر ملوكهم يزدجرد الثالث (٦٣٢ ـ ٦٥١م) الى الشرق، وقتل في مرو. وهكذا، في ٦٥١م، وصل العرب الى حدود اموداريا، وتمركزوا في واحة مرو متخذين منها قاعدة لهم، وراحوا ينطلقون منها الى منطقة ما بين النهرين، أي المنطقة الواقعة ما بين اموداريا وسرداريا.

وفي عام ٦٧٤م، اجتاحت الجيوش العربية آسيا الوسطى بقيادة عبيد الله بن زياد، ونهبوا بايكيند (مدينة قديمة تقع على بعد ١٤ كلم، جنوب شرق بخارى)

ومركزها كيش (شهريسابز حالياً). وكانت إلى الاسفل من سمرقند وعلى نهر زرافشان، تقع إمارتا ايشتيخان وكوشانيا، وبالقرب من بخارى، كانت إمارة وردان وعلى رأسها وردان ـ شاه. و كانت، آنذاك، فرغانة وخوجيند واستروشانا وشاش عبارة عن دويلات صغيرة مستقلة. طبعاً، لا يجوز استبعاد خوارزم من هذه العملية، وذلك ما يمكن ان نستدل عليه مما ذكره الطبري والمقدسي. وفي هذا الصدد يورد الطبري حقيقة طريفة، اذ يورد، اضافة الى لقب «خوارزم شاه»، لقب «الملك»، الذي يخضع من حيث منصبه أو وضعه للاول، بصورة اسمية طبعاً. ويقول المقدسي انه فقط في ميزدهقان وحدها (مدينة قديمة تقع بالقرب من خوجيلي الحالية) كان يوجد ١٢٠٠٠ قصر لكل قصر حصنه، وتعود الى اقطاعيين من درجات مختلفة.

باختصار، كان الانقسام والعداء والصراعات بين الاقطاعيين، والتي رافقها أحياناً اصطدامات عسكرية بين الملاكين الاقطاعيين، قد هيأت الظروف المناسبة ومهدت السبيل أمام العرب لفتح آسيا الوسطى وخوارزم. وفي المصادر المدونة باللغة العربية، ثمة حقائق وأدلة ساطعة تشير الى أن حكام آسيا الوسطى وخوارزم أنفسهم، ساعدوا كثيراً على انجاح الفتوحات العربية في هاتين المنطقتين. فذكر الطبري، مثلاً، ان تشاغان ـ خودات قام، نتيجة عدائه للكي شومان وآخارون (الواقعتين على نهر سورخان وكفرنخان)، وعام ٧٠٥م، باستدعاء قتيبة بن مسلم (والي الأمويين في خراسان وسيستان (٧٠٥ ـ ٧١٥م) إلى آسيا الوسطى. وقبل ذلك بسنة (عام ٧٠٤م)، حينما عارض القائد العربي عثمان بن مسعود نظيره القائد العربي موسى بن عبد الله بن حازم، الذي كان قد احتل خوارزم وأعلن تمرده، قام بمناصرة الاول الاخشيدُ السغدي وملك غوتّالان. وفي عام ٧١٢م استنجد خوارزم شاه اسكاجفار بالعرب في حربه ضد أخيه خورزاد والدهاقنة الخوارزميين المتمردين (الاقطاعيين). وحينئذ قامت القوات العربية بقيادة عبد الرحمن، شقيق قتيبة بن مسلم، بالانقضاض على المدينة ـ الحصن خامجيرد ـ مقر خورزاد والاستيلاء عليها، كما أسر خورزاد نفسه. قُتل آنذاك٤٠٠٠ من الأسرى

وعام ٧٠٧م، عاد قتيبة لاجتياح آسيا الوسطى مجدداً واحتل راميتان التي تعد واحدة من أقدم مدن بخارى. الا أنه لم يستطع مواصلة الزحف واضطر للتقهقر تحت ضغط القوات المتحدة السغدية والتركية والفرغانية. كما منيت بالفشل حملة قتيبة في عام ٧٠٨م، ضد حاكم وردان (شابوركاما)، وعلى القرية الواقعة في الحوض السفلي لزرافشان.

وهنا طلب منه الحجاج بن يوسف اتخاذ اجراءات حاسمة. وفي عام ٧٠٨م جهز قتيبة جيشاً جراراً واجتاز امودايا مرة أخرى، وسار به الى بخارى وسمرقند عاصمة سغد. على أنه، في هذه المرة أيضاً، لم يستطع التغلب على حاكم بخارى، فاتجه بجيشه الى وادي قاشقادريا واستولى على منطقتيه الرئيسيتين: كيش ونسف. وهذا ما مكنه من اخضاع حاكم بخارى، ولكن لم يستطع مواصلة زحفه وتحقيق مزيد من النجاحات، إذ ما كادت الجيوش العربية تبتعد حتى سارعت المدن، التي اعترفت بسيادة العرب عليها، إلى الخروج عن طاعة العرب وأعلنت استقلالها.

وكانت المرحلة الحاسمة النهائية لاخضاع آسيا الوسطى تماماً، في الفترة ما بين عامي ٧٠٩ ـ ٧١٠م. ففي العام ٧٠٩م، ومن دون اي مقاومة، استولى قتيبة على بخارى. وفي عام ٧١٠م تمكن من احتلال شومان. الا أن «غوريك»، ملك سغد، الذي اعيد انتخابه مجدداً (عام ٧١٠م)، استطاع اقناع الشعب بالنهوض للنضال ضد المحتلين. ولم يتمكن العرب من الاستيلاء على سمرقند. على أن النجاح حالفهم في خوارزم العريقة، وذلك نتيجة الاضطرابات وعدم الاستقرار في البلاد، حيث كانت تدور نزاعات عنيفة بين خوارزم شاه اسكاجفارا وأخيه خورزاد، الذي يسانده الدهقانيون، الأمر الذي أشرنا اليه آنفا. ونقلاً عن الطبري، ان اسكاجفارا، الذي وجد نفسه محرجاً في هذا الصراع، استنجد بالعرب، وقدم لقتيبة بن مسلم المفاتيح الذهبية لمدن خوارزم: خزراسب، وفير (فيل) وكيت. وقد جرى ذلك في عام ٧١٢م.

وفي العام نفسه (٧١٢م) استطاع قتيبة إخضاع سمرقند أيضاً، ولكن بعد جهود وخسائر كبيرة. وكان من الأهمية بمكان أنه استطاع أن يسبق حلفاء غوريك ـ الشاشيين والفرغانيين. فما إن علم باتجاه قواتهم الى سغد لنجدتها، حتى قام العرب

وبخارى ايضاً. واستنجدت الملكة تاخشادا بملوك كيش ونسف وسغد، وقاومت العرب، ولكن في معمعان المعركة خان السغديون البخاريين، وانسحبوا من ميدان المعركة، واضطرت تاخشادا لعقد اتفاقية سلام مع عبيد الله بن زياد كلفتها اتاوة باهظة جداً قدرها مليار درهم نقداً. وأخذ العرب معهم ٤٠٠٠ اسير، من بينهم ٨٠ من سلالة الأسر الحاكمة وكبار المسؤولين. وبعد ذلك، وحتى عام ٧٠٥م، شنّت الجيوش العربية عدة حملات لسلب مدن آسيا الوسطى ونهبها، على أنهم لم يستطيعوا ترسيخ اقدامهم فيها، إلا بعد تعيين قتيبة بن مسلم والياً على خراسان (عام ٧٠٥).

وفي عام ٧٠٥م، ومباشرة بعد تعيين قتيبة والياً على خراسان، توغل العرب في آسيا الوسطى، واتجهوا لفتح آخارون وشومان، القريتين الاقطاعيتين على نهر سورخان وكفرنيخون. بيد أنهم فشلوا، الأمر الذي اثار سخط الحجاج بن يوسف، والي الخليفة الوليد الأول (٧٠٥ ـ ٧١٥م) في الحجاز والعراق. وبعد انقضاء عام (أي عام ٧٠٦م) جهز قتيبة جيشاً كبيراً، وعبر مرو وآمول (تشارجوي حالياً)، وتوجه مرة أخرى الى بايكيند، التي سميت بـ «المدينة النحاسية» لجمالها وثرائها. ولنجدة بايكيند جاءت فصائل من سغد ونسف وكيش وانحاء اخرى من آسيا الوسطى.

ومع ذلك لم يتجرأ حاكم بايكيند على مواجهة جيش قتيبة وعرض عليه عقد الصلح، الأمر الذي وافق عليه العرب ولكن مقابل إتاوة كبيرة: مصنوعات من الذهب والفضة وكمية ضخمة من الاسلحة. ونقلاً عن الطبري، قام العرب بصهر المصنوعات هذه من الذهب والفضة، ولما وزنوها بلغ وزنها ١٥٠٠٠٠ مثقال. وبعد ذلك خرجوا من آسيا الوسطى، وأبقوا في بايكيند حامية على رأسها أحد اقرباء قتيبة. ولكن ما إن وصل العرب الى منتصف الطريق المؤدي الى أموداريا، حتى بلغهم نبأ حدوث عصيان في بايكيند. آنذاك قام البايكنديون بإبادة افراد الحامية عن بكرة أبيهم. وعاد قتيبة الى بايكيند. وبعد حصار دام شهراً، استولى على المدينة وعمل فيها سلباً ونهباً ما استطاع الى ذلك سبيلاً.

فعزل خليفته يزيد بن أبي مسلم وغيره. أما قتيبة الذي اقسم يمين الولاء لعبد العزيز شقيق منافس الخليفة الجديد، فكان أيضاً من ضمن الذين شملتهم حملة «التطهير». ولما علم قتيبة بذلك، اعتراه الخوف للوهلة الأولى، لكنه سرعان ما تمالك نفسه وتمرد على الخليفة سليمان، ولكن لم تمض مدة طويلة حتى قتل على يد جنوده الذين ثاروا ضده.

وهكذا، تمكن العرب من فتح آسيا الوسطى مع مطلع عام ٧١٥م، وظلت تحت حكم الخلافة العربية حتى الربع الأول من القرن التاسع.

العلاقات الاجتماعية الاقتصادية

أولى القادة العرب اهتماماً بالغاً، في مناطق آسيا الوسطى التي فتحوها بنشر الاسلام، الذي لعب بالتالي دوراً تقدمياً. وغالباً ما كانوا يلجأون في ذلك الى السبل السلمية ويعفون معتنقي الاسلام من دفع الخراج والجزية. هذه هي السياسة التي اتبعها الولاة العرب في خراسان وما وراء النهر منذ عهد الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز (٧١٧ ـ ٧٢٠م).

بادئ ذي بدء، أدت الفتوحات العربية الى التعجيل في عملية تقسيم الأسرة المتمسكة بالتقاليد القديمة، وإضفاء طابع اقطاعي على المجتمع في آسيا الوسطى. ونتيجة النضال والإغراء بالوعود، استطاع القادة العرب استمالة الدهاقنة (الاقطاعيين) وجعلهم حلفاء لهم، مما سهل عليهم ابقاء الشعب خاضعاً ومطيعاً لهم.

وتشير المصادر الى ان المجتمع في آسيا الوسطى كان آنذاك يتألف من الدهاقنة (الاقطاعيين)، مثلما لدى العرب والفلاحين المحليين الأحرار، أي افراد المشاعية الريفية وفلاحي المحاصصة المعروفين، بحسب المصادر العربية، بـ الاكارين والعبيد.

كان الفلاحون الأحرار، باعتبارهم أعضاء في المشاعية الريفية، يمتلكون الأراضي ولا يعرفون نظام المحاصصة، ويكتفون بدفع الخراج والجزية لخزينة الدولة.

بنصب الكمائن لها في الطريق، وقضوا عليها وهزموها. وبعد ذلك حاصر قتيبة المدينة من الجهات كافة، ونصب المنجنيقات أمام تحصينات المدينة، وراح يقصفها. ونقلاً عن الطبري، أن قتيبة، في هذه العملية، استعان بفصيلة كبيرة مؤلفة من الخوارزميين والبخاريين. وعلى الرغم من تفوق العرب عدداً وعدة وعتاداً، إلا أن السغديين صمدوا وقاوموا حتى النهاية، ولم يستسلموا إلا بعد أن أحدث العرب فجوة في سور الحصن، واندفعوا من خلاله إلى المدينة. وجاء على لسان الطبري: «عقد قتيبة اتفاقية سلام مع غوريك، شريطة أن يقدم الاخير للأول ١٠٠٠٠٠ رأس من الماشية، ويعمل على (تدمير معابد) النار والأصنام التي تزينها». وعلاوة على ذلك فرض على السغديين دفع ٢٢٠٠٠٠٠ درهم سنوياً، وتقديم ٣٠٠٠٠ من الشبان الاصحاء، كقوات احتياطية أو مساعدة في أثناء الحرب على ما يبدو.

وفي السنة التالية (٧١٣م)، سار قتيبة بن مسلم بجيشه الى كيش وفرغانة (خوجند وكاسان). وكان ضمن جيشه فصيلة كبيرة مساعدة من بخارى وخوارزم وكيش ونسف. وفي مكان ما في الطريق قسم قتيبة قواته الى قسمين: أرسل قسماً الى شاش، والثاني الى خوجند، التي قاوم سكانُها العرب مقاومة عنيفة. خلاصة الكلام، لم ينجح آنذاك قتيبة في فتح كاسان ولا شاش. كما لم يفلح في اخضاع شاش عام ٧١٤م. وذكر الطبري أن الذي حال دون ذلك هو وفاة الحجاج بن يوسف، حاكم العراق وخراسان. وكان ذلك في شهر شوال ٩٥هـ (يونيو - يوليو عام ٧١٤م). عندها ترك قتيبة قسماً من جيشه في بخارى وكيش ونسف، وعاد الى مرو.

وفي العام ٧١٥م، وبناءً على أمر من الخليفة الوليد بن عبد الملك (٧٠٥ - ٧١٥م)، قام بحملة ضخمة على فرغانة ووصل الى المنطقة الواقعة الى شرق انديجان والتي اطلق عليها فيما بعد اسم «كليتش مزار»، وكانت هذه آخر نقطة في الشرق بلغها العرب، حيث واجههم الاتراك بمقاومة عنيفة. ويقول الطبري، ولم تمض على ذلك مدة طويلة، أي في يوم السبت المصادف منتصف شهر جمادى الآخرة ٩٦هـ (٢٦ فبراير ٧١٥م)، حتى توفي الخليفة الوليد بن عبد الملك، وبدأ خليفته سليمان بن عبد الملك (٧١٥ - ٧١٧م) باضطهاد أنصار الحجاج وملاحقتهم،

النهر، كانت على ثلاثة اشكال:

مقاطعة، ومقاسمة ومساحة. فالمقاطعة عبارة عن إتاوة تدفع الى خزينة الدولة من أملاك الاقطاعيين، ويحدد حجمها بموجب اتفاقية خاصة تعقد بين المؤسسة المالية والاقطاعي. والمقاسمة هي الحصة التي يدفعها مالك الأرض من دخله، ويحدد حجم الحصة بناء على ظروف الري ونوع المزروعات. أما فيما يخص المساحة فإنها ضريبة تدفع على مساحة معينة من الأرض.

نضال الأسر الحاكمة: النزاعات بين الاقطاعيين وحركة المرتدين

في القرن الثامن عمت الخلافة نزاعات بين الأسرتين الحاكمتين، والاقطاعيين وحركة المرتدين «الهراطقة».

وفي العام ٧٤٦م، ترأس أبو مسلم (٧٢٧ ـ ٧٥٥م) الشخصية المشهورة حملة الدعاية العباسية الموجهة ضد سيادة الأمويين، وأدت في نهاية المطاف (عام ٧٥٠م) الى وصول العباسيين الى الحكم، ما أثار سخط العلويين الذين كانوا يريدون رؤية سليل علي على عرش الخلافة. وفي تلك السنة (٧٥٠م)، بدأت حركة قوية في بخارى بقيادة شارق بن شيخ المهري العربي الأصل الذي كان قد حظي حتى بدعم حكام بخارى وسمرقند وخوارزم وغيرها من المناطق. إلا أن حركة العصيان هذه قد سحقت في نهاية الأمر. ولكن سرعان ما بدأت في عام ٧٥٣م، النزاعات بين أبي مسلم، والي الخليفة على القسم الشرقي للخلافة، وزياد بن صالح، والي ما وراء النهر، تلك النزاعات التي حرض عليها خليفة المستقبل ـ ابو جعفر المنصور (٧٥٤ ـ ٧٧٥م)، ذلك بأن نشاطات ابي مسلم لم تعد موجهة لصالح العباسيين، وغدت تدعم القوى الوطنية المحلية، الأمر الذي كان يهدد بانفصال القسم الشرقي للخلافة عن المركز. لكن حركة زياد بن صالح أخفقت. كما أن ملاكي الأراضي الأرسطقراطيين في ما وراء النهر لم يؤيدوا حركته. فسار ابو مسلم نفسه بقواته وقضى على الحركة. وحاول زياد بن صالح ـ زعيم المتمردين ـ الاختفاء في قرية باركاس

أما فيما يتعلق بالأكارين، أي فلاحي المحاصصة، فكان وضعهم صعباً جداً، إذ إنهم كانوا، خلافاً للفلاحين الأحرار، عرضةً لجور الإقطاعيين الذين يجحفون حقوقهم ويستغلونهم. أما بالنسبة للعبيد فلا يخفى وضعهم على أحد ولا تستحق المسألة اي إيضاحات.

كانت الدولة، ممثلةً بالخليفة، وفق الشريعة الاسلامية، المالك الرئيسي للأراضي، يستغلها الخليفة، على العموم، بمساعدة رجال حاشيته والمقربين منه، وهم: كبار القادة العسكريين والمسؤولون المدنيون، ذوو المناصب العالية، الذين تنازلوا عن بعض حقوقهم له. إن مثل هذا النظام، وتسميته العلمية - النظام الاقطاعي - وبموجبه ينال الاقطاعي قطعة من الارض تكون ملكه طيلة حياته وأحياناً تكون موروثة. وتمنح هذه الاراضي لمن قدموا خدمات جليلة عظيمة للدولة. كان الاقطاعيون يتمتعون بالكثير من الحقوق والامتيازات. فمثلاً، كانوا لا يدفعون من مداخيلهم سوى العشر. وكانت، وفق هذه المصادر، تقتطع الأراضي البور (الاراضي الموات) ،وبعد إحيائها، كان القانون يعفيها من الضرائب والفروض الإقطاعية. إضافة إلى وسائل للتكريم (تعرف بالتسويغ)، تعفي أيضاً من الضرائب والفروض الاقطاعية كلياً او جزئياً. كما كانت بعض القرى الممنوحة، من باب التكريم، تحظى بحصانة خاصة، ولا يقترب منها جابي الضرائب.

كان الجزء الأعظم من الأراضي الصالحة للزراعة في أيدي الدهاقنة (الاقطاعيين)، الذين كانوا بدورهم يحظون بالامتيازات، ويشددون قبضاتهم على الاراضي الخصبة الشاسعة ووسائل الري، كانوا يستغلون مالكي المساحات الضئيلة من الأراضي وفلاحي المحاصصة أيما استغلال.

وكانت ضريبة الخراج هي الضريبة الرئيسية، ويجري تعيينها انطلاقاً من نوعية الأرض، وتوافر الماء فيها، وقربها من المدينة، وما الى ذلك من الميزات. وإضافة الى الخراج، كان السكان يدفعون الجزية.

والجدير بالذكر هنا، أن الفروض الاقطاعية ابان الخلافة في خراسان وما وراء

٨٠٠م، تمرد سكان «نسى» بزعامة أبي حاسب.

وكانت انتفاضة القائد العربي رافع بن ليث في سغد (٨٠٦ ـ ٨١٠م) ضد نظام الضرائب الجائر، من أشد الانتفاضات، فقد شملت وادي زرافشان، قاشقادريا وحتى شاش. وكانت معظم القوى المحركة الدافعة للانتفاضة من الفلاحين وفقراء المدن وقسم من الدهاقنة (الاقطاعيين الذين انضموا الى الحركة طمعاً في الاستيلاء على السلطة). وفي العام ٨٠٧م، أُرسل جيش بقيادة عيسى لاخماد الانتفاضة، إلاّ أن المتمردين الثائرين دحروا هذا الجيش ودمروه. بعد ذلك أرسل الخليفة الى خراسان ٣٠٠٠٠٠ مقاتل بقيادة خرساما بن عيّان، الذي فشل في قمع الانتفاضة في ما وراء النهر، التي كانت، حتى ذاك الحين، قد امتدت لتشمل طخرستان وبلخ. كان الوضع يهدد بخطر شديد، لدرجة أن هارون الرشيد قام بنقل مقر قيادته الى طوس في عام ٨٠٨م، وذلك كي يكون قريباً من موقع الأحداث، وليشرف شخصياً على الأعمال الحربية. وكان قد عين على خراسان والياً ذكياً ذا مراس وحنكة هو ابنه المأمون، الذي عزز جيشه بقوات جديدة من جيش خرساما بن عيان، واتجه به الى امول (تشارجوي حالياً) ومن هناك زحف على بخارى مباشرة. لقد تمكن من التغلب على المتمردين في ما وراء النهر، ويعود الفضل الأكبر في ذلك الى الانشقاق الذي وقع في صفوفهم. فمثلاً، في نهاية العام ٨٠٨م، انتقل الى جيش خرساما بن عيّان عدد من قادة الثوار مثل عجيفة بن انس واهواز بن مهاجر. وعندئذ تمكن خرساما ابن عيّان من الاستيلاء على بخارى في العام (٨٠٩م) ثم حاصر سمرقند، إلا أنه اخفق في احتلالها. وأفسد خططه كافة الحاكم الكارولي (جابغو). وعلاوة على ذلك، كان حمزة الخريجي قد تمرد مرة أخرى في خراسان. وفي محاولة لإخماد التمرد ورغبة في تصديع صفوفهم، أوصى الخليفة المأمون بتخفيض حجم الخراج في خراسان بنسبة الربع، الأمر الذي ساعد الخليفة الى حد ما على اخماد التمرد في خراسان. أما في ما وراء النهر فقد ظل التمرد مستمراً. وأرسل المأمون جيشاً بقيادة طاهر بن حسين الى سمرقند لمساعدة خرساما بن عيّان. وما كاد يقترب الجيش، حتى ترك جابغو مخيمه في ضاحية سمرقند واضطر رافع بن ليث المحاصر للاستسلام وتسليم نفسه الى خرساما بن عيّان وطاهر بن حسين، وسقطت

البخارية، بيد ان الدهقان (الاقطاعي)، الذي كان قد تعهد بحمايته، نكث بوعده فقام بقطع رأس زياد وحمله الى ابي مسلم. وعلى الرغم من ذلك كله، فقد ظل الخليفة مصراً على عزل ابي مسلم، فدبر ضده حركات تمرد جديدة، وحاول تسميمه سراً، على أن محاولاته كافة منيت بالفشل. وبغض النظر عن ذلك، كان النصر في هذا الصراع حليف الخليفة. ففي العام ٧٥٥م، وبعد اداء فريضة الحج، عرج أبو مسلم في طريق عودته على بغداد لزيارة الخليفة، فغدر الأخير بالأول وقتله.

كان ابو مسلم ذا سمعة جيدة، يحظى باحترام أهل خراسان وما وراء النهر واهتمامهم به، فأدت العملية الدنيئة الغادرة التي أودت بحياته، إلى ظهور حركة معادية للعباسيين في المناطق الشرقية من الخلافة: في العام ٧٥٥م جرى تمرد في الري بزعامة سنباد، وزامن هذا التمرد تمرد آخر تزعمه إسحق التركي في ما وراء النهر.

الا أن أقوى حركات التمرد، كانت تلك التي قام بها «ذوو الثياب البيضاء» بزعامة المقنع (٧٦٩ ـ ٧٨٣م)، والتي شملت كيش ونسف وسمرقند وبخارى، ومن ثم عمت بلاد ما وراء النهر قاطبة، وشارك فيها مختلف فئات السكان. وإذا كان الناس البسطاء وسواد الشعب يريدون التخلص من عدم المساواة والتسلط الاقطاعي، كانت طبقة الاثرياء، ولاسيما الاقطاعيين والارسطقراطيين المحليين، تطمع في تحرير البلاد من حكم الخلافة والامساك بزمام السلطة العليا. إلا أن الحركة منيت بالاخفاق في نهاية المطاف، إذ إن المتمردين كانوا يفتقرون الى المهارة القتالية والعدة والعتاد، ولم يستطيعوا الصمود أمام الجيش العربي النظامي المسلح بصورة جيدة، إضافة إلى غياب الاتفاق والانسجام بين قادة حركات التمرد. كما كان بين القادة من انتقل الى الجانب الآخر (الى الجانب العربي) أمثال ـ كابزام، سرحام وغيرهما.

وعلى الرغم من ذلك، لم يستطع الخليفة القضاء على استياء شعوب البلدان الخاضعة لسياسة الضرائب التي فرضها الولاة، وعلى الاستبداد الاقطاعي. ففي العام ٧٩٥م، بدأ السيستانيون انتفاضتهم بزعامة حمزة بن اتراك، وفي سنة

وحمل أجيالنا المقبلة على نسيان تاريخنا وحضارتنا وثقافتنا العريقة. أما الإسلام، كظاهرة اجتماعية فكرية، وكحصيلة تاريخية لتطور المجتمع منذ القرون السحيقة وحتى القرون الوسطى، وكدين حارب تعددية الآلهة وعبادة الأصنام، داعياً الى عبادة الله وحده، فقد أثبت أنه عقيدة قادرة على توحيد المدن والبلدان والقبائل والشعوب المختلفة، وأدت في نهاية المطاف الى تطوير العلاقات التجارية وغيرها من العلاقات بين الشعوب. وكان للإسلام أثر كبير في أخلاق الناس وعاداتهم، وبفضله تم القضاء على العيوب الاجتماعية كزواج المحارم، وما يسمى بطقس التطهير، أي نقل جثة الانسان المتوفى، الى مكان خاص، الى أبراج الدفن ، الى الأماكن المكشوفة على سفوح الجبال، أو الى الأماكن القاحلة المليئة بالحجارة لتأكلها السباع والطيور الجارحة. كان الاسلام وما يزال يترسخ في قلوب الناس، بفضل تعاليمه التي تحث على الاخلاق الحميدة والخير والانسانية.

أما اللغة العربية، التي أصبحت منذ مطلع القرن «٨م» لغة الدولة ولغة العلوم لدى سكان آسيا الوسطى أيضاً، فقد صارت بالتالي وسيلة التفاهم والتعامل في الميادين الاقتصادية والسياسية والثقافية بين جميع الشعوب، التي انضوت تحت راية الاسلام. فبواسطة اللغة العربية، بالتحديد، استطاعت شعوب آسيا الوسطى الاطلاع على مؤلفات علماء اليونان القدماء: اقليدس، افلاطون، جالينوس، ابقراط والرياضيات الهندية، ونظام الكسور العشرية، وتعاليم أفلاطون وأرسطوطاليس الفلسفية. وبفضل الاختلاط بالعرب والاحتكاك بهم استطاع سكان آسيا الوسطى، والاوروبيون أيضاً، الاطلاع على الاختراعات الصينية الباهرة كالبوصلة وملح البارود والورق. كما أن الابداعات الجليلة لاجدادنا ـ احمد الفرغاني، والخوارزمي، وابن سينا والبيروني والفارابي وغيرهم ـ تمكنت من الظهور الى حيز الوجود، بفضل اللغة العربية، التي بواسطتها تمكنوا من الاطلاع على أعمال علماء اليونان والهند الأقدمين ومؤلفاتهم.

إن علم تدوين التاريخ لدى العرب، الذي تطور بناءً على دراسة سيرة النبي

سمرقند في شهر اكتوبر عام ٨٠٩م، وتم القضاء على بقايا المتمردين في عام ٨١٠م.

في العديد من هذه الانتفاضات وحركات التمرد، وعلى سبيل المثال، كما في حركتي «حرام الدين» و«ذوي الثياب البيضاء»، لعب المزدكيون الجدد دوراً كبيراً، كما هو معلوم، حيث كانوا يرفضون الظلم الاجتماعي وعدم المساواة في المجتمع، وأركان الاسلام الخمسة: ١) الشهادة، ٢) الصلاة، ٣) الصوم، ٤) الزكاة، ٥) الحج واضافة الى ذلك، كان هؤلاء الهراطقة (المرتدون) يرجعون التعاليم القديمة التي كانت سائدة قبل الاسلام. وكانوا قد انبعثوا مجدداً منذ النصف الثاني من القرن «٨م» حينما رأى الشعب الكادح تحالف العرب والارسطقراطية المحلية. والجدير بالذكر ان زعماء هذه الحركات كانوا يؤمنون بالانبياء كافة ويتهمون أتباعهم ومشايعيهم بالمارقين المرتدين، وأعلنوا أنفسم أنبياء (المقنع)، ائمة أو خلفاء (ابو مسلم).

آثار الفتوحات العربية

وهكذا، في بداية القرن «٨» (عام ٧١٥م) استكملت، بصورة نهائية، الفتوحات العربية في آسيا الوسطى، بعد أن استمرت مئة عام ونيف (٧١٥ ـ ٨١٩م) ضمن الخلافتين الأموية فالعباسية. ودونما تحيّز، يمكننا الاعتبار أن هذه الحقيقة التاريخية كانت غزوا بكل ما تحمله الكلمة من معنى، إذ أريقت الدماء، وجرت أعمال تدميرية، وانتقصت حقوق السكان المحليين. وغدا الاسلام الدين الرسمي، واللغة العربية، اللغة الرسمية، ذلك أن الغازي او المحتل كان دائماً وفي مختلف العصور، يفرض نظمه وأفكاره على الشعوب والبلدان الخاضعة له. ولا يستثني العرب منهم. ولكن من باب العدل والانصاف ينبغي القول إنه لا مجال لمقارنة الغزوات العربية بالغزوات المغولية أو الروسية أو البلشفية. فالبلاشفة، مثلاً، نهبوا تركستان وسلبوها، ليس مادياً فقط بل روحياً أيضاً، وانتهجوا سياسة ليس فقط لتحويل هذه المنطقة الغنية مصدراً للخامات لهم، بل لإحلال ثقافتهم وعاداتهم ولغتهم في تركستان، وللقضاء قضاءً جذرياً على التراث الثقافي والتقاليد والعادات التي ورثتها الشعوب الخاضعة لسيطرتهم. باختصار، لقد حاولوا بطرق شتى حملنا

محمد (صلى الله عليه وسلم) وأعماله وتصنيفها، كان حافزاً هاماً لتطور الفكر التاريخي في آسيا الوسطى. ومن المؤلفات في التاريخ التي وضعها العلماء المحليون باستطاعتنا أن نذكر ما يلي: «تاريخ اليميني» ـ العتبي، «أثر الباقين»، «هندوستان» و«كتاب المسامرة وأخبار خوارزم» ـ البيروني، «سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي» ـ شهاب الدين النسوي وغيرها من الكتب الكثيرة.

وفي عهد العرب ازدهر فن بناء المساجد، والمدارس، والمآذن والقصور وفن الديكور التطبيقي. وكانت مساجد: «الأقصى ـ في القدس، ٦٩٢»، «الأموي ـ في دمشق ق ـ ٨»، ومساجد سامرّاء وقصورها ـ العراق، «وقصر قصير عمرة» ـ سوريا، من النماذج التي يقتدى بها في بناء المساجد والقصور التي بنيت فيما بعد في آسيا الوسطى.